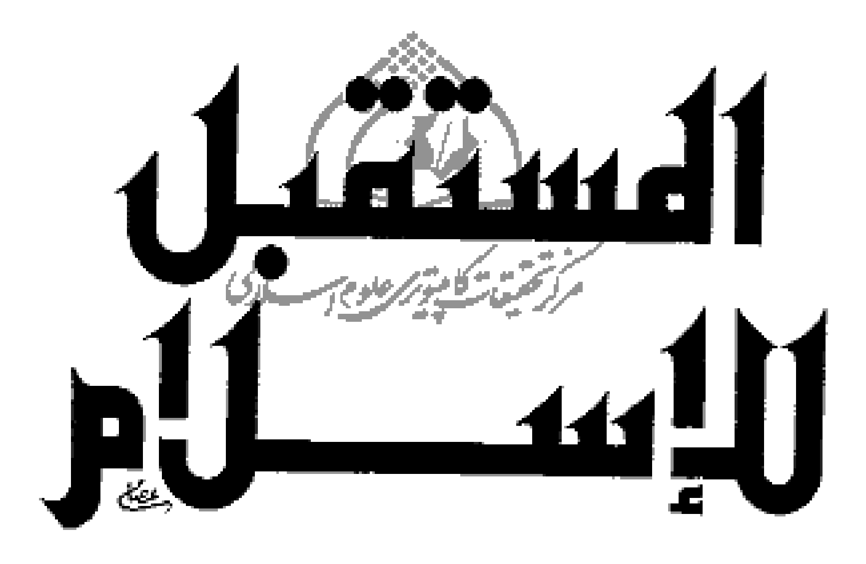


سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

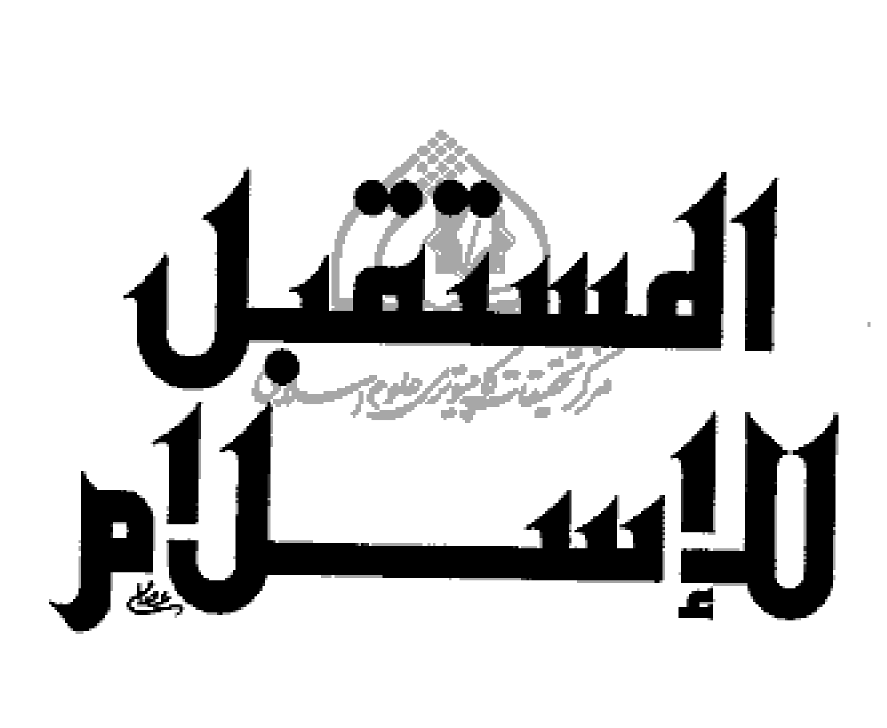
العدد ٤٦ ربيع الأول ١٤١٦هـ السنة الخامسة عشرة



الدكتور أحمد علي الإمام


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى
ربيــع الأول ١٤١٦هـ
تموز (يوليو) ، آب (أغسطس) ١٩٩٥م

٢١٠
أحمد علي الإمام
المستقبل للإسلام / تاليف أحمد علي الإمام .
الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٩٩٥م .
١٦٥ ص ، ٢١ سم . (كتاب الأمة ٤٦) .
(رقم الايداع القانوني بدار الكتب القطرية : ٣٥٨/١٩٩٥) .
الرقم الدولي الموحد للكتاب (ردمك) ٢٠ - ٢٢ - ٢٣ - ٩٩٩٢١
أ . العنوان ب . السلسلة .

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها



صدر منه :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

  « طبعة ثالثة » - الشيخ محمد الغزالي

- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف

  « طبعة ثالثة » - الدكتور يوسف القرضاوي

- العسكرية العربية الإسلامية

  « طبعة ثالثة » - اللواء الركن محمود شيت خطاب

- حول إعادة تشكيل العقل المسلم

  « طبعة ثالثة » - الدكتور عماد الدين خليل

- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

  « طبعة ثالثة » - الدكتور محمود حمدي زقزوق

- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري

  « طبعة ثالثة » - الدكتور محسن عبد الحميد

- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين

  « طبعة ثالثة+طبعة إنجليزية » - الدكتور نبيل صبحي الطويل

- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي

  « طبعة ثانية » - عمر عبيد حسنه

- أدب الاختلاف في الإسلام

  « طبعة ثانية » - الدكتور طه جابر فياض العلواني

- التراث والمعاصرة

  « طبعة ثانية » - الدكتور أكرم ضياء العمري

- مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي

  « طبعة ثانية » - الدكتور عباس محجوب

- المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل

  « طبعة أولى » - عبد القادر محمد سيلا

- البنوك الإسـلاميـة

« طبعة أولى » - الدكتور جمال الدين عطية

- مـدخـل إلى الأدب الإسـلامي

« طبعة أولى » - الدكتور نجيب الكيلاني

- المخدرات من القلق إلى الاستعباد

« طبعة أولى » - الدكتور محمد محمود الهواري

- الفكر المنهجي عند المحدثين

« طبعة أولى » - الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

- فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار

الجزء الأول والثاني «طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ عمر عبيد حسنه

- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

« طبعة أولى » - الدكتور زغلول راغب النجار

- دراسـة في البناء الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمود محمد سفر

- في فقه التدين فهماً وتنزيلاً

الجزء الأول والثاني «الطبعة الأولى»+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبدالمجيد النجار

- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات - التوزيع - الاستثمار - النظام المالي)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور رفعت السيد العوضي

- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية - دراسة مقارنة

«طبعة أولى»+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد محمد كنعان

- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - نخبة من المفكرين والكتاب

- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- الصحوة الإسلامية في الأندلس

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور علي المنتصر الكتاني

- اليهود والتحالف مع الأقوياء

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ منصور زويد المطيري

- النظم التعليمية عند المحدثين

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ المكي اقلاينة

- العقل العربي وإعادة التشكيل

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور عبد الرحمن الطريري

- إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- أسباب ورود الحديث

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد رافت سعيد

- في الغزو الفكري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي (الجزء الأول)+(الجزء الثاني)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أكرم ضياء العمري

- فقه تغيير المنكر

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد توفيق محمد سعد

- في شرف العربية

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور إبراهيم السامرائي

- المنهج النبوي والتغيير الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ برغوث عبد العزيز بن مبارك

- الإسلام وصراع الحضارات

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد القديدي

- رؤية إسلامية في قضايا معاصرة

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عماد الدين خليل

قال تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(النور: ٥٥)

تقـــــديم

بقلم : عمـر عبيـد حسنـــه

الحمد لله ، الذي أنعم علينا بالإيمان لسبيله القويم ، وهدانا صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين .

والصلاة والسلام، على المنقذ من الضلال ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي أخرج الناس من عبادة العباد ، إلى عبادة الله ، حرر العبودية ، التي هي نزعة فطرية ، في الإنسان ، من التسلط ، والاستعباد ، واسترد إنسانية الإنسان ، ووضع عن البشرية إصرها ، والأغلال ، التي كانت عليها .. وكانت النبوة ، بكل المفاهيم ، والاعتبارات ، والواقع الميداني ، والسياق التاريخي ، ثورة تحرير ، وانعتاق ، ونسخ لألوهية الإنسان على الإنسان ، التي تمارس تحت شتى العناوين ، والشعارات ، والادعاءات ، لإخلاص الوجهة لله سبحانه وتعالى . ذلك أن الشر، والظلم ، تاريخياً ، ناشئ ، من تسلط الإنسان على الإنسان ، وتعدد الآلهة ، المتخذة من دون الله ، والانحراف عن التوحيد ، الذي يعني فيما يعنيه : مساواة الخلق أمام الخالق.. والذي لم يعرف الجاهلية ، لا يعرف الإسلام حقيقة ، وبعد :

فهذا كتاب الأمة السادس والأربعون : « المستقبل للإسلام » ، للدكتور أحمد علي الإمام ، في سلسلة « كتاب الأمة » ، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، في دولة

قطر ، مساهمة في التحصين الثقافي ، والوعي الحضاري ، وإعادة بناء المسلم المعاصر ، وإحياء وعيه بدوره الحضاري ، ورسالته الإنسانية ، ووظيفته في الشهادة على الناس ، والقيادة لهم ، إلى الخير ، وإلحاق الرحمة بهم ، بعد تحققه بالمرجعية الشرعية ، وتبصره بالسنن الاجتماعية ، في الأنفس والآفاق، التي تمثل أقدار الله ، وسننه ، التي لا تتبدل ، ولا تتغير ، ليحسن التعامل معها ، ويمتلك القدرة على تسخيرها ، ومغالبة قدرٍ بقدر أحب إلى الله ، والفرار من قدر إلى قدر ، فليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله - كما يقول ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين - وهذا لا يتأتى ما لم يمتلك - إلى جانب فقه السنن - القدرة على استشراف التاريخ ، واستيعاب الواقع ، وإبصار المستقبل ، في ضوء هدايات الوحي ، ومدارك العقل ، وإعداد العدة المطلوبة ، بإحياء فروض الكفاية ، وتحقيق التخصصات المتعددة ، في فروع المعرفة جميعها ، والإحاطة بالعلم ، وإنضاج الخبرات ، والتزود بالطاقات الروحية المحركة ، ليتخلص المسلم من العطالة ، ويستأنف دوره من جديد ، على هدىً وبصيرة.

وقد لا نأتي بجديد عندما نقول : إن الإسلام دين الفطرة ، وإن الحضارة الإسلامية ، هي عطاء الفطرة ، وإن خلود هذا الدين ،وامتداده ، وقدرته على الإنتاج ، والعطاء ، مستمد من خلود الفطرة ، التي تتأبى على التشويه ، والتبديل ، وتمتلك إمكانية التجاوز ، والتصويب ، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (الروم : ٣٠) .. إن هذا الدين ، فطرة الله ،

فقوامته، واستقامته، وقدرته على التقويم ، والامتداد، والتجدد ، والتجديد ، مستمدة من رصيده في الفطرة البشرية ، وكان بين الإسلام ، الذي هو دين الله إلى البشرية : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ (آل عمران : ١٩) ، الذي رضيه الله لعباده : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ (المائدة : ٣)، وبين الإنسان، الذي فطره الله على هذه الخصائص، والصفات، والمزايا ، تواعد، والتقاء .. وأن المعركة الحقيقية، كانت ولا تزال ، في الصراع ، والتدافع ، بين الفطرة ، التي فطر الله الناس عليها ، وبين محاولات التشويه، والتبديل ، والتضليل والاغتيال لهذه الفطرة ..

وفي ضوء ذلك ، يمكن أن نفهم قول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: « ... **وإني خلقت عبادي حنفاء ، كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم** » (رواه مسلم في كتاب الجنّة) .. ونفهم قول الرسول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة: «**مامن مولود إلا و يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه، وينصرانه ، و يمجسانه .. كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحسون فيها من جدعاء ؟**» (رواه مسلم ، في كتاب القدر) .

وندرك الأبعاد الكاملة لقوله تعالى في سورة الروم : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم : ٣٠-٣٢) .

وفي ضوء ذلك أيضاً ، يمكن ان ندرك ، بأن حقائق الخلق الإنساني العضوي، والنفسي، لها من الثبات ، والامتداد ، والديمومة ، والعطاء ، كحقائق الخلق الكوني .. وإن تميزت، عنها بأهلية الاختيار.. وأن رصيد الخلق في الفطرة البشرية ، كرصيد الخلق في الفطرة الكونية .. وأن حقائقها ، لا تقل ثباتاً وامتداداً ، عن حقائق الشمس والقمر ، والكواكب الأخرى .. وأن السقوط المستمر للآلهة المزيفة ، التي أرادت تبديل خلق الله ، عبر التاريخ البشري ، وفتنت الناس إلى حين، جاءت من مواضعات البشر .. وأن غياب الحضارات ، واندثارها، واستمرار الإسلام ، دليل على خلود هذا الدين ، لأنه استجابة طبيعية لفطرة الله ، التي فطر الناس عليها ، وشاهد إدانة مستمر، وتأكيد على أنه لا تبديل لخلق الله ، وأن العبرة دائماً هي بالعواقب، والمآلات الممتدة ، وليست بالنتائج القريبة ، التي تحاول أن تختزل الخلود في لحظات مرضية ، في إطار الزمان والمكان ..

لذلك بالإمكان القول : إن رصيد هذا الدين ، في الفطرة البشرية ، أو باعتبار هذا الدين ، هو دين الفطرة ، أو هو الفطرة نفسها ، وإنه صبغة الله سبحانه وتعالى : ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ (البقرة : ١٣٨) ، وثمرة علمه المطلق ، بتقلبات الزمان ، والمكان، والإنسان: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الملك : ١٤)، ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة : ٣٠) ، ونتاج عدله المطلق

الذي لا يليق به غيره ... إن هذا المنطلق لفطرية هذا الدين ، هو الذي أهل الإسلام ، ليكون دين الإنسان ، وهو الفيصل الأساس ، بين الإسلام ، وسائر المشروعات الحضارية البشرية ، والمنظومات العقائدية المختلفة، والأيديولوجيات الوضعية المتعددة.. ولعل هذا هو السر الأعظم ، في خلود الإسلام ، حيث تتساقط المشروعات ، والحضارات البشرية ، والدينية التي عبثت بها أيدي البشر .

إن الإمكان الحضاري ، والقدرة على تحقيق الشهود الحضاري على الناس ، والقيادة لهم، وتقويم سلوكهم ، بشرع الله ، الذي يمثل أساس مهمة الأمة المسلمة، الذي بينه قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة : ١٤٣) ، نابع من القابليات المركوزة في الفطرة لهذا الدين .

وفي نطاق هذه القدرة ، المتميزة، لهذا الدين ، على النهوض ، وإعادة البناء ، الذي اصطلحنا على تسميته : بالإمكان الحضاري ، يمكن لنا أن نلمح بعض المقومات ، ولعل في مقدمتها، إضافة إلى ركيزة الفطرة:

أن رصيد التجربة البشرية التاريخي ، وبكل إصاباته ، وإنجازاته ، وسقوطه ، ونهوضه ، وعبره ، ودروسه ، انتهى إلى النبوة الخاتمة ، فهي بذلك تمتلك ، إلى جانب رصيد الفطرة، رصيد الفعل التاريخي ، الذي يعتبر المختبر الحقيقي للأفكار ، والمبادئ ، والدعوات ، والحضارات ، والعبرات ، فهي تقف على قمة التجربة البشرية ، ليس وقوف الذاهل ، الغافل ، وإنما وقوف المبصر ، الذي يمتلك أدوات النظر ، ومعاييره ، وقيمه .

إن الوقوف على هذه القمة الحضارية ، إن صح التعبير ، بكل ما فيها من نهوض ، وسقوط ، وكفر ، وإيمان ،وخير ،وشر ، وقوة وضعف، في أقدار التدين، سوف يمكن المسلم، من امتلاك القدرة على استشراف الماضي البعيد ، والنظر إلى كيفية بدء الخلق ، والتأمل في مسيرته ، وما تعرضت له من عثرات ، كما يمكنه من استشراف المستقبل البعيد ، والمآلات، والعواقب ، في ضوء ذلك الماضي ، الذي استقرت له ، وفيه ، قوانين الاجتماع البشري ، والحركة التاريخية، وتأكدت فاعلية سنن الله في الأنفس ، والآفاق .. وحتى لا يصيب إنسان الإسلام ، الذهول ، والغفلة، والعجز ، والضياع ، جعل الله النظر في العمق التاريخي، والتأمل في العواقب ، والاهتداء إلى السنن ، الناظمة للحياة ، والاتعاظ بأحوال السابقين ، واختصار الزمان ، و التجربة ، وتحقيق الوقاية الحضارية ، من السقوط ... جعلها من الفروض الحضارية ، أو الاجتماعية ، فقال تعالى :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٧-١٣٨) .

وإذا سلمنا بأن الحاضر هو مستقبل الماضي ، وماضي المستقبل ، كما يقال ، أدركنا الرصيد ، والزاد ، ومقومات الرؤية المستقبلية ، التي يتمتع بها إنسان الإسلام ، الذي لم يقف فيها عند حدود المحسوس ، في عالم الشهادة ، ويخادع ببعض النتائج القريبة ، ويعيش قلق المصير ، وإنما يتجاوز إلى ماوراء المحسوس ، والمنظور ، في عالم الشهادة ، إلى التحقق

برؤى مطمئنة عن العواقب ، والمآلات ، التي سوف تصير إليها الأمور ، من خلال مقدماتها في الماضي ، ونتائجها في الحاضر ، الأمر الذي سوف ينتهي بها إلى ادراك مآلاتها المستقبلية ، المقترنة بتوثيق الوحي ، الصادق المصدوق ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر: ١٤).

وهنا قضية ، قد يكون من المفيد الإشارة إليها ، ولو سريعاً ، وهي أن الرؤية ، التي يمنحها الإسلام للمستقبل ، بشكل أخص ، ولعالم الغيب بشكل أعم ، ليست رؤية غائمة، حالمة ، طوباوية، بعيدة عن القدرة على التصور ، والإحاطة العقلية بها ، وإنما هي رؤية تمتلك كامل مقوماتها، وحتى مقدماتها المادية في الدنيا ، ونماذج السنن ، التي تحكمها ،حيث يمدنا التاريخ بدليل صدقها ، وفاعليتها ، ويضعنا على عتبة المستقبل، متحققين بالزاد المطلوب .

لذلك نقول : بأن أي استشراف للمستقبل ، لا يمكن أن يتحقق بدون استشراف للماضي، والتحقق به، وأي إدراك لمصير الخلق ، لا يمكن أن يدرك بدون السير في الأرض ، والنظر في السيرورة البشرية : كيف بدأ الخلق ، قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ ﴾ (العنكبوت : ٢٠) .

والقرآن الكريم ، لم يكتف ، بتوجيه المسلم صوب التاريخ ، وأمره بالتوغل فيه، واكتشاف السنن الناظمة للحركة الاجتماعية ، وتسخيرها ، والوقاية الحضارية من إصاباتها ، وتركه يمارس الاكتشاف بنفسه ، وإنما زوده بهدايات الوحي ، كما زوده بأدلة ، ونماذج تاريخية ، في القصص

القرآني ، تفتح بصيرته، وتقدم له القدر ، الذي يشكل الأنموذج ، وسراج الهداية ، ودليل العمل ، وبوصلة التوجه.

والمقوِّم الآخر ، الذي يمتلكه هذا الدين ، في إطار الإمكان الحضاري، أنه يمتلك ، دون غيره من الأديان ، صحة النص السماوي ، وسلامته من التحريف ، والتبديل ، وانتقاله بالتواتر .. وعلى الرغم من أن سلامة النص ، تعتبر من لوازم الخاتمية ، حيث تعني الخاتمية ، في أقرب مدلولاتها ، توقف التصويب من السماء ، لما يمكن أن يكون من عمليات التحريف ، والتبديل ، والإلغاء ، فإن من خصائص الخلود أيضاً ، استمرار النص سليماً، لكل الأجيال ، في كل زمان ومكان ، حيث لا يعقل أن يخاطب الناس بنصوص محرفة ، أو منحولة ، ومن ثم يحاسبوا على مدى التزامهم، بما حمل لهم الخطاب من تكاليف ، وفي ضوء ذلك يمكن أن نفهم الأبعاد الكاملة لقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر : ٩).

نقول : على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من لوازمه المادية ، وثمرته، بتعهد الله بالحفظ، فإن الخطاب السماوي في الرسالة الخاتمة ، خضع لأعلى درجات التوثيق ، والحفظ، والنقل ، حيث بلغ حد التواتر ، الذي يفيد علم اليقين ، مشافهته ، وكتابته ، إلى درجة أصبح معها النص القرآني – بالمعايير العلمية البشرية – يعتبر أقدم وثيقة تاريخية، وردت بطريق علمي صحيح، ولذلك قد لا نستغرب ، أن يدرك ذلك بعض أبناء الأديان الأخرى ، ويقوده إدراكه ، ومنهجه العلمي الوثائقي ، إلى اعتبار القرآن ، هو المصدر

الوحيد ، الوثيق ، لبيان عقائد النصرانية، واليهودية الصحيحة، وبيان ما داخلها من تحريف ، وتشويه ، ذلك أن المصادر الأخرى ، لا يوثق بها ، لا من الناحية التاريخية ، ولا من الناحية العلمية ، إذا خضعت للفحص والاختبار ، وأن قبولها واستمرارها ، محكوم بنوع من التسليم ، وهالة من القدسية، تحول دون مناقشتها، وعرضها على موازين التقويم والنقد .

وهنا قضية، لابد من إثارتها، ولعلها من مقومات الإمكان الحضاري أيضاً: وهي أن المسلمين، في الجيل المشهود له بالخيرية، لم يفهموا من قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩) ، أنهم معفوون من مسؤولية الحفظ، والتوثيق، والنقل، طالما أن الله تعهد بها، وإنما أدركوا مسؤوليتهم تجاه القرآن، وأنهم أوعية الحفظ ، والنقل، وأن الحفظ والنقل، إنما يتحقق من خلال عزمات البشر وفعلهم، لذلك، سارعوا إلى الحفظ والكتابة، منذ بدء الوحي، حيث اتخذ الرسول ﷺ كتَّابًا للوحي، ونهىٰ عن كتابة غير القرآن؛ حتى لا يختلط النص السماوي بكلام البشر، فقال: «**لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه**» (رواه مسلم، في كتاب الزهد) ، وأرعبهم اشتداد القتل بالقراء، في معركة اليمامة ، وخافوا على ضياع القرآن ، وأن يلحق بهم ما لحق باليهود ، والنصارى ، من الاختلاف، ومن ثم استنفروا جهودهم كاملة لحماية خطاب الله، الذي هُدد بالإصابة، فكان جمع القرآن ، وحفظه ، ونقله ، حتى وصلنا كما أُنزل .

وأمة تمتلك ، وتتفرد بوراثة الكتاب، وبامتلاك النص السماوي الخاتم، الخالد، سليمًا، وتدرك أن مدلولاته ، ومقاصده، لابد أن تتحقق من خلال عزمات البشر، هي أمة مؤهلة، لتحقيق الشهادة على الناس، والقيادة لهم، والقيام بأمانة الشهود الحضاري.

وقد يكون من الأمور المهمة، التي تقتضي الإشارة إليها، ونحن بسبيل الكلام عن مقومات الإمكان الحضاري الخالد، الذي تحقق للأمة المسلمة، والذي يمنحها القدرة على النهوض ، وإعادة البناء، هو عقيدة التوحيد ، وثمراتها الإيجابية ، في إعادة صياغة الإنسان، وتوحيد وجهته ، في العقيدة والعبادة، والولاء والبراء، وتحقيق الانسجام بين نفسه، وروحه، وجسمه ، وعقله ، وعاطفته ، وسائر أشواقه ، وتطلعاته ، وسموه، وحاجاته، وترقية خصائصه، وتصعيد غرائزه، ذلك أن التوحيد لم يقتصر على آفاق البحث النظري، في مجال العقيدة، وتوحيد الأسماء والصفات، وإنما أثمر رؤية توحيدية، في كل شُعَب الحياة، المعرفية والعملية، ونفي الشرك، وتوحيد الوجهة، في المجال السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والأخلاقي: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦٢).

ولعلنا نقول هنا: إن التوحيد هو الركيزة الأساس، في الإمكان الحضاري، حيث قضى على التثليث، والتجسيد في العقيدة، الذي حاول إخضاع الخالق لسيطرة الإنسان، وخصائصه، وصفاته، وقضى على الثنائية، بين الوحي والعقل، التي كانت سببًا في سقوط الحضارات

تاريخيًا، وتشطير الإنسان، وتقطيع أوصاله، وتعدد وجهاته، ومنازعه، ومصادر التلقي عنده.

لقد تخلص إنسان الإسلام، من ثنائية الوحي والعقل، ذلك الخيار الصعب، الذي طُرح تاريخيًا، كثمرة لمقدمات مغلوطة، فلم ير المسلم تناقضًا، بين معارف الوحي، ومدارك العقل؛ لأن الله، هو مرسل الوحي، وخالق العقل، ومكلفه بتعاليم الوحي، ومخاطبه بمعارفه، ولذلك فلا يمكن أصلاً، تصور أي تناقض.. فالعقل سبيل معرفة الوحي، ومحل تكليفه، والوحي، هو سراج الهداية للعقل، والإطار المرجعي، والضابط المنهجي لمعارفه، ولا يمكن ابتداءً لأحكام الوحي، أن تناقض العقل السليم، لأنه محل الخطاب والتكليف، كما أسلفنا.. ولو افترضنا أن الصدام والتناقض، حاصل من الناحية النظرية، فلا معنى إذًا للتكليف، الذي مناطه العقل، لأن التكليف لا يقع إلا على محله.. ولما كان العقل، متأثرًا بالرغبات والنزوات، وواقعًا تحت احتمالات خطأ الحواس المعتمدة، لإيصال المعلومة إلى العقل، كما أنه خاضع للعلم المحدود، والعمر المحدود، والاطلاع النسبي، فلا يمكن له أن يستقل بالنظر، والحكم. أما الوحي فهو: خطاب الله، العليم، علمًا مطلقاً، منزهًا عن الخطأ والغرض، والمُبَلِّغُ المُبَيِّنُ له هو: الرسول المعصوم ﷺ، لذلك فالتعارض منتف، بأصل الوضع، أما عند توهم التعارض، أو وجوده، لسبب أو لآخر، فإن الوحي المعصوم، مقدم عقلاً، على العقل المظنون.

وجيل خير القرون، ومن تبعهم بإحسان، في فترات التألق، والعطاء

الحضاري كلها، لم يعانوا من هذه الإشكالية، التي دمرت إنسان الحضارة الغربية، ووضعته أمام الخيار الصعب، فانتهى، إما إلى إلغاء العقل، وإسقاطه، واعتبار التدين والإيمان، يعني ويقتضي: الإلغاء الكامل للعقل، والتسليم، بدون تعقل، الأمر الذي أدى إلى شيوع الخرافة، و التصورات المشوهة، والانسلاخ من الدين، والقيم الأخلاقية.. وإما إلى نفي الدين، وتأليه العقل، والاكتفاء بعلم ظاهر الحياة الدنيا: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الروم:٧)، وإسقاط معارف الوحي، وتقطيع الإنسان إلى أبعاض.

إن جيل خير القرون، والفترات التاريخية كلها، التي تمتعت بالبناء، والتألق الحضاري، لم تعان من هذه الثنائيات، إلا عندما طغت مفاهيم الحضارة الغربية، وأخذ الناس بأشيائها، ونقلوا فكرها، وفلسفتها، وثقافتها، وهمًا، منهم بأنها قارب النجاة، وسبيل الرقي الحضاري وما زادتهم إلا تبعية وتكريساً للتخلف، ونوعاً من الفصام الحضاري.

ولعل من مقومات الإمكان الحضاري، الذي يؤهل الأمة المسلمة للشهود الحضاري، أو بعبارة أدق: يؤهلها للشهادة على الناس، والقيادة لهم: هو وجود أنموذج الاقتداء التطبيقي، المعصوم، الذي تم تطبيقه، وبناؤه، على عين الله، صاحب الخطاب الأصلي، وفعل المعصوم ﷺ لتنزيل القيم، والنص السماوي المطلق، على الواقع النسبي، وتقويم سلوك الناس بها.. وهذا الأنموذج الذي امتد بناؤه ثلاثة وعشرين عامًا، استوعب أسس الحالات، وسبل حلول المشكلات، التي يمكن أن تتعرض لها البشرية، في تاريخها الممتد، حتى قيام الساعة، إنه أنموذج للدعوة والدولة،

والضعف والتمكين، والسقوط والنهوض، والهزيمة والنصر. .الخ . . أنموذج لكيفية التعامل مع القيم، من خلال الواقع، والتعامل مع الواقع، والارتقاء به، وتقويم سلوكه، بشرع الله، من خلال القيم. . ويبقى المطلوب، في كل مشروع للنهوض والتجاوز: القدرة على استلهام الأنموذج المعصوم، وفقه الحالات المشابهة، ووضع الواقع في موقعه المناسب، من مسيرة بناء الأنموذج، والإفادة من كيفية تعامله مع الحال المشابه، لتسديد المسيرة، وتغذية السير، بعيداً عن أي تقليد ، ومحاكاة للنماذج الرديئة، من أي مصدر جاءت. لذلك جعل الله استلهام الأنموذج المعصوم ، ديناً من الدين ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

ومن الأمور التي لابد من لفت الانتباه إليها، ويمكن اعتبارها من مقومات الإمكان الحضاري أيضاً، في هذا المجال - مجال تميز الأمة المسلمة، بأنموذج الاقتداء التطبيقي المعصوم ، لتنزيل القيم على الواقع - هو استمرار حمل الأنموذج، وعدم انقطاعه ، في كل المراحل. . صحيح بأن مساحة هذا الأنموذج، قد تضيق، وقد تتسع، لكنها أبداً لا تنقطع، ولعل سمة الخلود، التي تعتبر من لوازم الرسالة الخاتمة، تعني فيما تعني، من الناحية النظرية: القدرة على الإنتاج العملي في كل عصر، وتأكيد ذلك من الناحية العملية التطبيقية ، إنما يكون في امتداد الأنموذج، الذي يجسد القيم ، ويدلل على قدرتها على الإنتاج، وقابليتها للتطبيق ، وإثارة الاقتداء بها . . في ضوء ذلك، يمكن أن نفهم بعض الأبعاد الغائبة، لقول

الرسول ﷺ : **«لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»** (رواه البخاري ومسلم).

إنه استمرار لأنموذج الاقتداء، الذي يمنح الدليل العملي، والشاهد الواقعي على الإمكان الحضاري، وقابليات النهوض، وإعادة البناء، والإقلاع من جديد، ذلك أن الطائفة القائمة على الحق، تمثل بحق ميداناً تدريبياً تأصيلياً للمعاني الغائبة، وترجمة القيم إلى واقع وسلوك، والأفكار إلى أفعال .. ولعل امتلاك الأمة المسلمة للقيم، في الكتاب والسنة، التي لا يد للإنسان في وضعها، أو إلغائها، والتي تمثل الدليل للفعل البشري، والمعيار لصوابيته وخطئه، يمنحها القدرة على اكتشاف أخطائها، وممارسة عمليات التصويب، والنهوض، والتجدد الذاتي، والقضاء على جوانب الانحراف، ونوابت السوء .. يمنحها القدرة، ليس فقط عل معايرة الحاضر (الواقع)، وتحديد مواطن الإصابة، والقصور، ومعرفة أسباب التقصير، ورسم سبل الخروج منه، وتقويمه بشرع الله، وإنما تمتلك القدرة أيضًا، على تقويم الماضي (التاريخ)، وبيان جوانب الانحراف والاستقامة، والخطأ والصواب فيه ، التي انتهت بنا إلى ما صرنا إليه.

فالتاريخ، هو في نهاية المطاف، فعل بشري، يجري عليه الخطأ والصواب، وهو محاولة لتنزيل القيم على الواقع .. وهو ليس أمرًا مقدسًا، ولا معصومًا، وهو بذلك ليس مصدراً لتشريع الأحكام، وإنما هو محل للدرس، والعبرة، والاهتداء إلى السنن الاجتماعية الفاعلة، والتحقق بالوقاية الحضارية، حتى لا يتكرر الخطأ، وتستمر الإصابة.

فالأمة المسلمة، ليست أسيرة لتاريخ أو لماضٍ، اللهم إلا السيرة الصحيحة، التي تمثل أنموذج الاقتداء، المسدد بالوحي، والمؤيد به.. بل لعل السيرة النبوية، تشكل أحد المعايير التطبيقية، لتقويم التاريخ، وبذلك فالأمة المسلمة، قادرة باستمرار، على التجدد الذاتي، والتجديد، وهذا يعتبر أحد مرتكزات الإمكان الحضاري الكامن في طبيعة الأمة، وقيمها، التي تؤهلها باستمرار، لاستئناف السير، ومعاودة النهوض، ولعل هذا ،هو السر الحقيقي في عدم انقراض الأمة المسلمة، وموتها، وعدم خضوعها بإطلاق، للدورات الحضارية، التي جرت على الحضارات التي سادت ثم بادت ، على الرغم من خضوعها لسنة التداول الحضاري ، قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، ذلك أن خميرة النهوض ، تتمثل دائمًا في القيم المستمدة من الوحي (الكتاب والسنة)، وفي تجسيدها، وتفعيلها في الطائفة الممتدة، القائمة على الحق.

لقد ذهب علماء الحضارات، كثمرة لاستقرائهم التاريخ البشري، وصفحات السقوط والنهوض، إلى أن الحضارة، أية حضارة، تمر بمراحل ثلاث، فقالوا :

إن المرحلة الأولى: هي مرحلة الفكرة، مرحلة الإيمان بالهدف، الذي يملأ على الإنسان نفسه، ويشكل له هاجسًا دائمًا، وقلقًا سويًا، ويدفعه للعطاء غير المتناهي، والتضحية في سبيل ذلك، بكل شيء، بما يمكن أن يعتبر أن من أهم سمات هذه المرحلة: بروز إنسان الواجب، الذي لا يرى

إلا ماعليه، ويقبل على فعله بوازع داخلي، بإيمان، واحتساب، دون أن يخامر عقله، ماله من حقوق.. هو إنسان واجب، إنسان إنتاج، وليس إنسان حقٍ فقط، إنسان استهلاك.. وقد يكون من المفيد هنا، أن نذكّر بحديث الرسول ﷺ، الذي وصف مرحلة الوهن الحضاري، والإشراف على السقوط، وحدد معادلتها، عندما سئل عن الوهن، الذي يصيب الأمة قال: «**حب الدنيا**» (ظهور إنسان الغريزة - إنسان الاستهلاك)، «**وكراهية الموت**» (غياب إنسان الإيمان، والإنتاج، والاحتساب) (الحديث رواه أحمد، مجلد ٥، ص ٢٧٨).

أما الدورة الحضارية الثانية، أو المرحلة الحضارية الثانية، التي تمر بها الأمة، هي مرحلة العقل، وضمور الإيمان، وفتور الحماس، نسبياً.. مرحلة التوازن، بين العمل والأجر، بين الحق والواجب، بين الإنتاج والاستهلاك، بين الدنيا والآخرة، دورة ضبط النسب.. حلول العدل، محل الإحسان.. وهنا تصل الحضارة إلى قمتها، وتبدأ مرحلة السقوط، إذا لم تستدرك ما يتسرب لها من أمراض.

والدورة الحضارية الثالثة، أو مرحلة ما قبل السقوط النهائي، هي مرحلة غياب الإيمان والعقل، وبروز الشهوة، والغريزة، وانكسار الموازين الاجتماعية، واستباحة كل شيء وبكل الأساليب، وعندها تسقط الحضارة، وتموت الأمة، ويتم الاستبدال.

إن عدم خضوع الأمة المسلمة، للدورات الحضارية بإطلاق، وقدرتها على الاستمرار، والتجاوز، والتجدد، والتجديد، والنهوض، من دون

غيرها من الأمم والحضارات، يعني فيما يعني: أنها تمتلك الإمكان الحضاري الممتد، والمفقود في الحضارات الأخرى، السائدة منها، والبائدة، وذلك بامتلاكها النص السماوي السليم، الذي يشكل المعيار، وامتداد الأنموذج، المفعم بالإيمان، والإيثار، والإحسان، المتمثل بالطائفة القائمة على الحق، التي تمثل خميرة النهوض، بما تحمل من إيمان، وفاعلية، إنما تمثل استمرار إنسان الواجب، الذي يحفظ التوازن، ويعيد للحياة معناها المفقود، ويثير الاقتداء به، وهذا من ثمرات الخاتمية، والخلود، ومن لوازمهما، إن صح التعبير.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن ندرك مواثيق الله، وعهده لهذه الأمة، أن لا يسلط عليها عدوها، تسليط استئصال وإبادة، وإنما تسليط تأديب على معاصيها، وتحريض لها، لتعاود المراجعة، والتقويم، والنهوض من جديد. قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ (آل عمران: ١١١)، وقال رسول الله ﷺ: «... **وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم**» (رواه مسلم، في كتاب الفتن وأشراط الساعة).

وهنا نقطة، قد تكون جديرة بالتوقف قليلاً، بما يتسع له المجال، وهي أن السقوط الحضاري، مهما كان قاسيًا، يكون بالإمكان تجاوزه، واستدراكه، واستئناف عملية النهوض من جديد، إذا اقتصر السقوط والانهدام، على عالم الأشياء، أو ما اصطلح على تسميته: «بالمدنية»، واستمر عالم القيم والأفكار، أو ما اصطلح على تسميته: «بالثقافة»، سليماً.. لذلك استطاعت الأمة الإسلامية، بما تمتلك من قيم محفوظة

بحفظ الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، والمتحقق حفظها، من خلال عزمات البشر، استطاعت أن تعيد البناء، وتمارس عملية النهوض، على الرغم من فداحة الانكسارات، وعظم النكسات، وشراسة الهجمات، وقوة الأعاصير المدمرة، لأنها لم تفتقد قيمها، وأفكارها، ومخطط النهوض ودليله.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن ندرك أبعاد قوله تعالى، في أعقاب هزيمة أحد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٩-١٤٠).. إنه استعلاء الإيمان، رغم سقوط، وهزيمة الأشياء، وعظم الانكسار.. وقوله تعالى في سورة البروج، بعد أن عرضت السورة لعذابات المؤمنين، وتحريقهم بالأخدود، وشراسة الظالمين، وتقديم نماذج للظلم المتصاعد، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (البروج: ١٧-١٨) (طغيان واستبداد حاكم: فرعون. وتواطؤ وظلم أمة: ثمود)، ثم ختم السورة بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١-٢٢)، الأمر الذي يلمح منه الإنسان، أن الشدائد الشديدة، لا تنال من الأمة، ولا تسقطها، إذا حفظ لها عالم أفكارها، الذي يضمن القدرة على العود، لذلك فإن معركة إسقاط الأفكار، والغزو الثقافي، هي الأخطر دائمًا، وعمليًا.. وأن عملية التحريف والانتحال، والمغالاة، هي الأدهى والأمرّ..
ولذلك أيضًا، نرى أن حسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، رسالة كل

مسلم ، وفريضة الأمة المسلمة ، هي الحارس الأمين لعالم القيم، وتطبيقاتها في المجتمع، ونرى أن الدورات التجديدية على رأس كل مائة عام، التي أخبر عنها الصادق المصدوق ، تأتي لتعيد تنقية عالم الأفكار، مما أحدث فيه من جديد «**يبعث الله على رأس كل مائة عام ، من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**» (رواه أبو داود، في الملاحم)، ليبقى الإمكان الحضاري مستمراً.

وفي إطار ما تتمتع به الأمة المسلمة، من الإمكان الحضاري، الذي يمنعها من السقوط، ويدفعها إلى النهوض، بما تمتلك من الخصائص، التي أشرنا إلى شيء منها، قد يكون من الأهمية بمكان، العود على بدء، من أن الحضارة الإسلامية، بعطائها، وامتدادها، لم تعان، على مستوى التصور والسلوك، معًا، أو على مستوى الفكر والفعل، من ثنائية العقل والوحي، الأمر الذي أدى إلى تشطير الإنسان، وتدمير بعضه، وإنما سار العقل والوحي بخطين متوازيين، لا يصطدمان، فلا تعارض في التصور الإسلامي، بين العقل والنقل، أو بين صريح المنقول ، وصحيح المعقول، والأمر لا ينظر له في المجال المعرفي الإسلامي، في إطار التعارض، الذي غالباً ما يمليه اليوم الموقف الدفاعي، بمقدار ما ينظر إليه في نطاق الانسجام والتوافق، لإنتاج الإنسان المتوازن، المتناسق.

فإذا كان الوحي في الكتاب والسنة، مصدراً للمعرفة والتشريع، فإن العقل، بما يمتلك من الإمكان، والأهلية، هو الذي يستنبط، ويحقق ذلك، بل ويمتد به لتعدية الرؤية، وتنزيل النص، وتحقيق مقاصده في الواقع، بما

اصطلح عليه: (بالاجتهاد، الذي يعتبر المصدر الثالث للتشريع).. وما الاجتهاد إلا إعمال العقل، لمد الرؤية، وتوليد الأحكام الجديدة، للحوادث الجديدة، في ضوء الوحي، ذلك أن العقل، يجرد المقاصد، من حدود الزمان، والمكان، ويولد في ضوئها الأحكام الجديدة، أي أن العقل، يمتد بالوحي ليقوِّم بأحكامه جميع شؤون الحياة .. فإذا كانت النصوص تتناهى، والحوادث المتجددة لا تتناهى، كما يقول علماء الأصول، فإن اعتماد الاجتهاد كمصدر للتشريع ، هو أحد مقومات الإمكان الحضاري، و مصدر الحيوية، وسبيل تحقيق الخلود، وآلية الفعل الحضاري، ذلك أن الاجتهاد، هو مصدر الإجابة عن كل الأسئلة، وتقديم الحلول لكل المشكلات، التي تواجه المسلمين، بعيداً عن صور التخلف، والعجز، والتخاذل الحضاري، التي يمكن أن يصنف خارج نطاقة الإسلام الصحيح، وأمانة التكليف.

وقد يكون من الأمور، التي لابد أن تقدر حق قدرها، على الرغم من كل المحاولات المستميتة لتشويهها، والتي كانت سببًا في اختيار الإسلام، واستمرار امتداده، في كل الظروف، والأحوال، والأوضاع، سواءً في أكثر المجتمعات تقدمًا مدنيًا، أو في أكثرها تخلفًا وانحطاطًا، أن الإسلام استرد إنسانية الإنسان، وجعل التدين حرية واختياراً، واستطاع إيقاف تأله الإنسان على الإنسان، الذي هو مصدر الشر، والظلم في العالم -كما أسلفنا- وحَلَّ المعادلة الصعبة، أو صَوَّبَ المعادلة، بين السلطة، والألوهية، والإنسان.

ذلك أن العلاقة ، بين السلطة ، والطغيان ، والعلو في الأرض، وبين الألوهية، أخذت حيزاً كبيراً من تاريخ الإنسان الطويل ، في هذه الدنيا ، حتى لتكاد تكون علاقة تلازم في فترات طويلة، حيث كان يصعب على صاحب السلطة، أن يقبل، أو يعترف ، أو يتصور بوجود سلطان غيره ، أو بوجود إله غيره ، يمكن أن يتجه إليه الناس .

وهنا لابد أن نذكر مرة أخرى، بقولة فرعون ، كأنموذج للطغيان في التاريخ البشري، عندما دعاه موسى إلى الإيمان بالله، حيث قال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص : ٣٨) .. ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ (النازعات : ٢٤) ، ومقولة النمرود : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة: ٢٥٨) ، واستدل لذلك من استخدام سلطته ، التي أوهمته بالألوهية ، وفهم من قول سيدنا إبراهيم: إن الله يحيي ، ويميت ، تلك العملية الساذجة ، حيث يقدر هو أيضاً أن يقتل إنساناً ، ويطلق سراح آخر، ممن حكم عليهم بالإعدام ، وعندما نأتي على ذكر هذين الأنموذجين، من تاريخ العلاقة ، بين الإنسان ، والسلطة ، أو بين السلطان ، والتأله، والعلو في الأرض ، فإننا نؤكد أن هذه النماذج ، سوف تتكرر، بشكل ، أو بآخر ، بشكل واضح ، سافر ، أو بشكل خفي مستتر، وأقل ما في ذلك اليوم ، عزل الحياة عن سلطان الله، ليحل محله المتألهون، أو آلهة العصر الجديد – ولكل عصر آلهته – لأن القرآن خالد ، ومجرد عن حدود الزمان، والمكان .. وهذا الخلود يعني تكرار الفراعين ، والنماريد ، والقوارين ، وتكرار المواجهة ، والإصابات ، والتدافع ، بين

الحق ، والباطل ، ليمتحن الناس ، ويتمايزوا ، والشر من لوازم الخير ، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ (الرعد : ١٧) ولولا هذه الشواهد ، التي قد لا يخلو منها عصر ، أو مكان ، في جنبات الأرض الواسعة ، لكان القرآن، كتاب تاريخ ، وقصة ، وتسلية ، لا علاقة له بواقع الحياة ، ولا مستقبلها.

إن صاحب السلطة ، إذا تجرد من الإيمان بالله ، وديمومة مراقبته، وخشيته، واستصحاب الحذر من التسلط ، وما يترتب عليه من الإثم العظيم، يصعب عليه ، بما يمتلك ، من القدرات التنفيذية ، والصلاحيات المنظورة ، والحواشي المنفذة بلا رؤوس ، يصعب عليه ، رؤية مقام العبودية لله تعالى ، واستشعار المسؤولية عن العمل ، والكف عن شهوات النفس .

لذلك نرى ، من استقراء التاريخ ، أن الكثير من أصحاب السلطان ، والحكام، حتى عند اعترافهم ، بوجود الله ، لم يرضوا أن يعترفوا بسلطانه، على الأرض !!، وعند اعترافهم بهذا السلطان يحاولون تشويه، صورة العبودية لله تعالى ، لتكون في خدمتهم ، فيجعلون من أنفسهم ، آلهة الأرض ، نيابة عن إله السماء، ويعلنون أنهم هم المتحدثون باسمه ، والمفسرون لتعاليمه ، وأنهم هم ظله على الأرض ،الذين يمثلون إرادته، وفي هذه الحالة ، يربطون ، بين استبدادهم ، وتسلطهم على حياة الناس ، وضمائرهم ، وبين إرادة الله ، الذي انتدبهم، بزعمهم، ليكونوا آلهة الأرض، بحيث يصبح كل من يخالفهم ، أو يناقشهم ، أو يتقاعس عن

تنفيذ أوامرهم ، عاصياً لله سبحانه . . إنه التأله ، والتسلط ، والظلم، باسم الله ، والدين ، وهو أشد وأشر أنواع التسلط ، وتعبيد الإنسان للإنسان .

ولقد عانى الإنسان ، من الحكم الديني ، أو ما عرف في أوربا ، باسم : (الحكم الثيوقراطي)، أشد المعاناة، حيث لم يعد الحكام يتسلطون، على دنيا الإنسان، ويلغون وجوده ، واختياره ، وإنما امتد ذلك، للتسلط على أخراه أيضاً ، لأن معارضة الحاكم الثيوقراطي، عصيان لله ، سوف يحاسب عليه الأنسان ،في الدنيا بالظلم ، والعسف ، والطغيان ، وفي الأخرة ، بالعذاب الأبقى!!

وكان من المستحيل ، عقلاً ، وواقعاً أن يستمر ، هذا التأله ، الذي يمارس على الإنسان، منفصلاً ، ومنكراً لله تارة ، ومستخدماً اسم الله ، وإرادته ، حيناً آخر . لكن المشكلة بالقراءة الخاطئة ، التي وقع فيها الإنسان، أثناء النظر إلى معادلة السلطة ، والإنسان ، فتوهم أن المشكلة كلها آتية من الإيمان بالله ، الذي يزيفه هؤلاء، الذين يدعون أنهم ظل الله على الأرض،وليست المشكلة في التزييف ، ومحاولة الاعتداء على سلطان الألوهية ، من بشر ، هم كسائر البشر ، يعطون أنفسهم حق التسلط على الآخرين ، الذين لا يختلفون عنهم ، فكان أن أنكر الإنسان الدين ، والإيمان، سقوطاً في هذا التزييف ، دون أن يدري أن حل المشكلة، وتصويب المعادلة ، إنما يكون بالإيمان الصحيح ، وتوحيد الألوهية ، والربوبية ، وإيقاف الشرك السياسي ، ونسخ التألهات السلطوية ، التي حاولت أن تجيّر الإيمان لحسابها . . ولم يدر الإنسان أن إلغاء الإيمان بالله ،

وقيمه ، التي تحكم الجميع ، ويتساوى أمامها الجميع ، هو تكريس لألوهيات البشر ، بشكل ظاهر ، أو خفي ، لأنهم هم ، الذين سوف يتولون وضع الضوابط ، والمعايير، التي يحكمون بها الناس ، ويغيرونها ، تبعاً لأهوائهم، ولتحقيق مصالحهم ، وتأمين سلطتهم ، وتسلطهم .

ولابد أن نذكر هنا، أن أعتى المواجهات ، كانت بين النبوة ، والكبراء، سدنة الشرك السياسي .. كانت بين مدعي الألوهية من البشر، ومنكري ألوهية البشر وتسلطهم، من الأنبياء ، إلى درجة يمكن أن نقول معها : إن النبوة جاءت كثورة تحريرية، لإيقاف تسلط الإنسان ، على الإنسان ، وإعلان مساواة الناس ، وإعلان التوحيد ، والوحدانية ، التي تلغي تأليه البشر ، أو شراكة البشر .. جاءت لتحرر الإنسان ، من العبوديات جميعاً ، وتربطه ، بخالق البشر ، بما فيهم أصحاب السلطان ، وتمنحهم القدرة على الصمود ، والمواجهة ، والصبر ، في مواجهة الظلم ، والاستبداد ، والشرك السياسي ، وتجعل ثوابهم عظيماً ، في مواجهة التأله، في الأرض ، وتقدم لهم نماذج للظلم ، والاستبداد السياسي الموهوم ، وكيف كانت عاقبته ، بل وتتحدى الظالمين ، والمتألهين، بالعواقب ، وأنهم على الأرض، ليسوا أكثر من وسائل إيضاح، وأدوات فتنة، موقوتة، للظلم، والطغيان ،فأين فرعون ، وهامان ، ونمرود، وقارون ؟! وتمنحهم الثقة ، والانتصار، مهما اشتد الظلم ، والظلام ، فالذي قوّض ملك فرعون، هو الذي تربى في قصره ، على الرغم من كل الاحتياطات السلطوية .

ونستطيع أن نقول هنا : إن الإسلام ، أو النبوة ، الخاتمة ، استطاعت أن تصوب معادلة السلطة ، والإنسان ، في التصور ، وتجسد هذا التصويب ، في الواقع ، عندما نزعت صفة الألوهية ، عن كل المخلوقات ، وأعلنت المساواة في الإنسانية ، والخلق ، بين الحاكم ، والمحكوم ، بل أكدت أكثر من مرة ، حتى لا يتلبس الإنسان بألوهية الإله ، أن الأنبياء المتصلين بالله فعلاً ، هم بشر من البشر ، لا يمكلون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً . . وأن السلطة ، هي في نهاية المطاف ، تكليف ، وليست تشريفاً . . وأنها مسؤولية ، من أعظم المسؤوليات . . وأنها إجارة ، وليست إمارة ، وتعالياً على خلق الله . . وأن السلطان ، ملزم بتنفيذ شرع الله . . وأن طاعته لا تنعقد ، إلا بهذا الالتزام بالقيم ، التي لا يد له في وضعها . . وأنه ليس بالضرورة ، أن يكون خير الناس ، لأنه تولى أمرهم . . و أن الشورى ، إنما تكون فيما لا نص فيه ، من الله ، ورسوله ، وحتى في تطبيق النصوص ، وتنزيلها على الواقع . . وأن الإنسان ، مسؤول أمام الله ، وليس أمام المخلوقين ، مهما كانوا .

نقول : لقد استطاع الإسلام ، أو النبوة الخاتمة ، تصويب معادلة السلطة ، والإنسان ، واسترداد كرامة الإنسان ، بحيث أصبحت العلاقة ، بين السلطة والإنسان ، نوعاً من العقد الاجتماعي ، الذي ضُبطت فيه حدود الطاعة ، والمسؤولية ، سواء بالنسبة للحاكم ، أو المحكوم ، على حد سواء .

وكان شعار ، أو ميثاق الحكم ، في الإسلام : « **أطيعوني ، ما أطعت الله** » — والناس يعلمون شرع الله ، الذي يشكل لهم المعيار لفعل الحاكم ، ويستوجب طاعته — « **فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم** » . . « **وليت أمركم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأطيعوني ، وإن أسأت فقوموني ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق** » .

إن هذا الميثاق ، للعلاقة سوّى بين الحاكم ، و المحكوم ، وجعل المسؤولية أمام الله ، وليست أمام البشر ، وجعل القيم المنزلة ، الثابتة ، هي معيار الحاكم ، والمحكوم ، وبذلك صوبت معادلة السلطة ، والإنسان ، وألغيت ألوهيات البشر لبعضهم ، وهذا هو أشد أنواع التسلط ، الذي عانى منه الإنسان ، في تاريخه الطويل ، من التعامل مع الأرباب ، من غير الله .

لكن النزوع السلطوي ، إلى الطغيان ، والاستبداد ، والتأله ، والترفع على خلق الله، لايزال يتكرر بشكل، أو بآخر.. ولعل من مظاهر الخلود ، في القرآن، أن يتكرر الوهم، عند بعض أصحاب السلطان، ويدعي بعضهم، أنهم آلهة الأرض ، فتأتي ممارساتهم جميعاً، اعتداءً على كرامة الإنسان ، واختيار الإنسان ، ويتكرر شعار : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ (الشعراء:٤٩)، ويستمر العدوان على سلطان الله ، في التشريع ، ويخول بعض أصحاب السلطان أنفسهم ، وضع الشرائع ، التي تؤمن مصلحتهم ، وتحقق تسلطهم، ويتلاعبون بها ، طبقاً لأهوائهم ، حتى أصبحوا يتفننون بالاعتداء علي سلطان الله ، فكما كانوا ، في الماضي يعتبرون أنفسهم آلهة الأرض ، فهم اليوم يقولون : إن الإيمان بالله ، أو الإسلام ، هو نوع من العلاقة الوجدانية الخاصة ، بين الله ، والإنسان ، محلها الضمير ، بعيداً عن تنظيم مسالكه ، وعلاقاته ، في الأرض، التي يتصرف بها، بشر من البشر ، هم أصحاب السلطة .

وبعد هذا ، هل نستطيع أن نقول : إن فصل الدين عن الحياة، أو بعبارة أدق، فصل الحياة عن الدين، الذي يمثل التطبيق العلماني، في المجال المعرفي –كما أن اعتبار الإنسان مصدر كل السلطات ، والتشريعات، باسم

الديموقراطية، يمثل الوجه الآخر للتطبيق العلماني في المجال السياسي- هو لون من الارتكاس ، عن طريق النبوة ، وعودة إلى تأليه السلطة، ومنحها سلطان وضع القيم للناس ، وإلغاء لقيم الله الناظمة للحياة ، والعلاقة بين الناس ، وعودة إلى ممارسات الأرباب في الحكم ، والتشريع ، وإهدار كرامة الإنسان ؟

لذلك نقول : إن تصويب المعادلة ، بين السلطة ، والألوهية ، والإنسان، هو من أبرز ملامح الإمكان الحضاري ، وإعادة البناء الصالح .

وبعد :

ففي هذه الظروف العسيرة ، التي تمر بها الأمة المسلمة ، والتي يسودها الإحباط ، واليأس ، والتخاذل ، والاستسلام ، بسبب استكبار «الآخر» وعلوه ، وما استدعى ذلك من العبث بمفاهيم الجهاد ، وتغييب مدلوله ، وإسقاط تاريخه ، وتجاوز موقعه من الدين ، بلون من التأويل الفاسد ، والفهم المغشوش ، والانتحال الباطل ، وتفسير المنهزم ، تأتي هذه اللمحات التفاؤلية ، تحمل البشائر والبصائر ، بأن المستقبل لهذا الدين ، وتعيد الاعتبار لاستعلاء الإيمان ، الذي يكاد يتوارى، والذي يحمي من الانكسار، استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٩) ، وليس ذلك من خلال الأمنيات ، والرغبات ، وإنما من خلال السنن التغييرية ، التي شرعها الله وأرادها، وفطر الناس عليها ، وزودهم بآلياتها، بكل ما تقتضيه من الإعداد الروحي والمادي ، ليكون الإنسان هو وسيلة التغيير وهدفه ، في آنٍ واحد .

يأتي هذا الكتاب ، ليؤصل لمفهوم الجهاد ، من الناحية الشرعية ، ويعيد له روحه ، وفاعليته ، ومواصفاته ، وبعده الحضاري ، والمستقبلي ، وما يقتضيه من إعادة الصياغة والإعداد ، ويحذر من التقاعس ، والتثاقل عن النفرة إليه ، الذي يؤدي إلى تعريض الأمة للاستبدال ، والانقراض ، خاصة وأن دور الإعداد الروحي بدأ يتضاءل ، ويغيّب ، تحت وطأة الانتكاسات المتلاحقة، وضغوط الحياة المادية، وانطفاء الفاعلية، وتسرب اليأس إلى النفوس، وغلبة سلطان العادة ، وغياب معاني العبادة ، وانكماش الأبعاد النفسية ، والمادية ، المترتبة على ملازمة المجاهد لذكر الله ، لكي يتحقق بالنصر والفلاح : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .

إن الانهدام الروحي ، الذي يعاني منه ، الفرد المسلم اليوم ، ومحاولات الانتقاص ، والتقليل من شأنه ، وإغفال دوره ، يستدعي نذر النفس للمرابطة من جديد في هذا الموقع ، وإحياء معانيه في نفوس الأمة .

وقد حاول مؤلف الكتاب ـ جزاه الله خيراً ـ ترجيح بعض الأمور الاجتهادية ، لأسباب يراها ، ومواجهات يعيشها ، ومقاصد شرعية يهدف إلى تحقيقها ـ وفي الأمر سعة ، إن شاء الله ـ لكن تبقىٰ وجهات نظر فكرية ، اجتهادية ، ليست بالضرورة أن تكون هي المرجحة في رأي كثير من المسلمين ، ذلك أن « كتاب الأمة » ، هو كتاب فكر ، معنيٌّ بالاجتهاد الفكري ، والتشكيل الثقافي ـ وكل إنسان يجري عليه الخطأ والصواب ـ من خلال مرجعية شرعية ، منضبطة بضوابط الكتاب والسنّة .

والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

مقدمة

الحمد لله ، الذي جعل المستقبل للإسلام ، بالفتح المبين ، والنصر العزيز ، والتمكين لعباده المستضعفين ، الذين يسعون لنشر هدى الله ، ونور الإسلام ، أنحاء المعمورة ، عبر القارات كلها ، تحقيقًا لوعد الله الحق : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم : ٤٧) .. ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) ، وهو مستقبل قريب ، إن شاء الله ، يتحقق معه استخلاف المسلمين في الأرض : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ (النور:٥٥) .. ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة : ٢١٤) .. ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٠) .

وفي القرآن كله ، يعضده ما صح من هدي نبينا عليه الصلاة والسلام ، تأكيد بأن المستقبل لدين الإسلام ، والأمة المسلمة ، فالمصدر محفوظ بحفظ الله ، باقٍ أبد الدهر : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) .

فهو كتاب مصون عن التحريف ، والتبديل .. أخباره صادقة .. وأحكامه عادلة : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام : ١١٥) .. ورسالته عالمية ، تعم كل مكان وزمان .. ورحمته تشمل العالمين : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) .. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) .

والصلاة والسلام ، على من بعثه ربه ، بالرسالة الخاتمة : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب : ٤٠) ، فكان من خصائصه عليه الصلاة والسلام ، ختمه للرسالات ، وعموم رسالته .. وختم الرسالة ، وعموميتها ، مقتضيان لأبديتها ، وبقائها ، لتؤدي دورها في هداية الإنسان ، وعمران الكون ، وسيادة الحضارة الإسلامية ، التي هي حضارة الذاكرين ، القانتين ، الصالحين ، الذين شروا

أنفسهم ، وأموالهم لله ، وأقاموا شرع الله ، فحكموا بالعدل بين الناس ، وأحسنوا ، وأصلحوا المجتمع ، فكانت النهضة الواسعة ، المؤذنة بتجديد أمر الدين ، على سنة الله الماضية في القرون المتوالية : **«إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»** (رواه أبو داود) .

وبعد :

فهذه دراسات ، كتبتها في ظروف مختلفة ، حول المستقبل ، الذي نعتقد يقيناً ، بأنه للإسلام ، بإذن الله ، وعوامل وشروط صناعته ، آخذين بعين الاعتبار ، أنه يلزم لصناعة المستقبل ، للإسلام ، في عصرنا هذا ، تضافر جهود العاملين في ميادين العمل للمستقبل ، ومجالاته ، لتلتقي ، وتجتمع ، وتتحرك إلى قبلتها ، منشرحة الصدور ، بتوحيد الله ، مجتمعة القلوب ، متحدة الكلمة ، على حب الله تعالى ، وحب رسوله ﷺ ، وحب المؤمنين : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة : ٥٤) .

ولعل في مقدمة هذه العوامل والشروط ، الجهاد في سبيل الله ، ذروة سنام الإسلام ، بمعناه الواسع ، الذي يشمل : إلى جانب الجهاد بالأموال والأنفس ، جهاد الحجة والبيان ، ومجاهدة النفس ، في سبيل الله ، ليكون من ثمّ سبيل تمكين الدين ، وإزالة العوائق والفتن ، التي تحول دون صناعة المستقبل ، ليعم من بعد السلام والأمن الحقيقيان ، يقول تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾
(الحج : ٣٩ - ٤٠) .

فالمؤمنون حين يمكّن الله لهم دينهم الذي ارتضى ، يؤدون واجبهم في بناء النفوس ، ونشر الطمأنينة ، وانشراح الصدور بذكر الله ، وتحقيق التكافل ، والإصلاح الاجتماعي ، يقول تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤١) .

ومثلما كانت مشروعية الجهاد بالسلاح ، بعد سلوك السبل السلمية كلها ، مع الصبر على الأذى ، واحتساب ما لقي المؤمنون في سبيل الله ، فهو كذلك في ترتيب العمل الإسلامي اليوم ، لإحياء شعائر الله ، وإقامة شرائعه ، وتبليغ كلمة الحق ليكون الناس منها على بيِّنة .. ولكن المؤمنين مأمورون أبداً بإعداد العدة ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وعلى قدر طاقتهم في التصنيع الحربي ، والإعداد القتالي : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

وعوامل النصر الحقيقية ، هي الاستنصار بالله ، والتوكل عليه ، والافتقار إليه ، يقول تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٦) .. ويقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) . وقد لزم إعداد المجاهدين أنفسهم ، بما يشرح صدورهم ، من التحقق بالمقامات الإيمانية ، والتزام ذكر الله كثيراً ، ليُقبل على القتال ، وهو كره للنفوس ، من حبّب الله إليه الإيمان ، وزينه في قلبه ، وكرّه إليه الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، ليكون جهاد المجاهدين ، من ثمّ : حتى لا تكون فتنة، ولا صدّ عن سبيل الله ، ويكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

فالدعوة إلى الإسلام ، هي دعوة الذاكرين ، كما أن الجهاد في سبيل الله ، هو جهاد الذاكرين ، الذين إن مكّن الله لهم في الأرض ، ورأوا إقبال الناس على الدين الحق ، ذكروا الله ، وعظموه ، وعلّموا الناس أمور دينهم ، وسعوا في منافعهم ، ومصالحهم ،

وحكموا بينهم بالعدل ، والإحسان ، وأقاموا حضارة الذاكرين ، وكانت نهضتهم العمرانية ، تجعل المساجد محوراً وقبلة .

ومن هنا ، تنشأ الأمة الجليلة ، وتأخذ مكانها في الريادة ، والعمل ، والإنتاج ، والتفوق العلمي ، والثقافي ، والحضاري ، لأن الذكر والدعاء ، يبعثان على العمل الصالح، ويزيدان المقامات الإيمانية .

ولذلك كان سلفنا ، من أهل الصحبة ، والإحسان ، يتناصحون بذلك ، مثل قولهم لبعض : (اجلس بنا نؤمن ساعة).(١)

وهذه الروح ، تحث على العمل ، والإنتاج ، والجد ، والجهاد ، وبناء الدولة ، وإصلاح المجتمع ، بل إن الأذكار والأدعية المسنونة ، أثناء أداء هذه الأعمال ، والواجبات، دالة على أن أكثر الذكر ، والدعاء ، ما يكون أثناء الحركة والعمل .. والأعمال العظيمة تنشأ ، والحضارة تنهض ، وتزدهر ، في ظل الإيمان ، والاطمئنان بذكر الله ، ودعائه ، واطمئنان القلوب ، وانشراح الصدور ، وتحقيق السلم ، والأمن .

وهي حقيقة مقررة ، وقد سجلها بعض المراقبين من الباحثين في تاريخ الحضارات : (إن الحضارة تبدأ ، حيث ينتهي الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع ، وعوامل الإبداع ، والإنشاء ، وحينئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية ، تستنهضه ، للمضي في طريقه ، إلى فهم الحياة ، وازدهارها)(٢) .

والحكم بالشريعة ، الذي يعتبر من أهم شروط صناعة المستقبل ، لأنه يستحيل عقلاً وشرعاً ، تصور مستقبل إسلامي ، بعيداً عن تطبيق شرع الله ، هو ثمرة الجهاد في سبيل الله ، لإقامة العدل والإحسان بين الناس ، وحماية المجتمع، بسيادة أحكام الشريعة الإسلامية ، على سعة معاني الشريعة ، في المعاملات المدنية ، والقوانين الجنائية ، والحدود جزء منها ، ومميز للمسلمين ، وسياج منيع لتحقيق الاستقرار ، وإصلاح المجتمع ،

---

(١) البخاري ، الإيمان ، معلق ، وراجع كشف الخفاء للعجلوني ، ٥١/١ ، ح ١١٥ ، وعزاه إلى أحمد ، وقال : حديث حسن .
(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، المقدمة ، ج ١ ، ص ٣ .

لأنه لا يكون صلاحٌ في المجتمعات الإنسانية ، إلاّ بما شرعه الخلاّق العليم ، الذي يعلم النجوى والسر وأخفى ، يقول تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) . .

فلا يحقق التناسق بين الكائنات كلها ، إلاّ ما شرعه الله ، وخلاف ذلك الجاهلية ، قديمة كانت أو حديثة : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) .

وقد أمر الله بأداء الأمانات إلى أهلها ، وإقامة العدل بين الناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، موافقهم ومخالفهم ، وعلى اختلاف أصولهم ومللهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .

ومع العدل ، أمر بزيادة الإحسان : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (النحل : ٩٠) . .

ثم أمر بالبر والقسط مع غير المسلمين ، ما داموا مسالمين : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الممتحنة : ٨-٩) .

ومهما كانت قوة البطش ، التي يملكها المخالفون أو المحاربون ، فإن المسلمين يملكون أن يقدموا للمجتمع الإنساني ، هذه الدعوة .. وهي بقوتها الذاتية ، بالغة ، وهادية ، لمن شرح الله صدره للإسلام ، أو رضي بمسالمة هذا الدين ، ما دام حراً في اختياره ، لا سلطان لأحد عليه ، بلا إكراه : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .. ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩) .

لهذا ، فإن بالحوار والمجادلة بالحسنى ، حيث وجد الدعاة سبيلاً إلى ذلك ، يتحقق التحول السلمي للإسلام ، في كثير من بقاع الأرض اليوم ، تماماً كما حدث من قبل .

ولنجاح هذه المهمة ، لا بد من نماذج صالحة ، متأسية بالنبي ﷺ ، يرى العالم أثر الهدي النبوي عليها ، في تكامله ، وشموله ، وجماله ، بحيث يشع رأفة ، ورحمة . ولا يكون ذلك ، إلا وهذه النماذج ، توالي في الله ، وتعادي في الله .

وهذا الكتاب ، يُفتتح بحديث عن بشائر مستقبل الإسلام ، في مواجهة التحديات الحضارية المعاصرة ، وقفنا من خلاله على أبرز معالم الاختلاف ، بين الحضارة الإسلامية ، والحضارة الغربية ، مع مناقشة موضوعية لدور مؤسساتنا الثقافية ، في هذا الصراع الحضاري ، وبيان عناصر الإيجاب والسلب ، في تقييم الدور الذي تقوم به ، ثم عرضنا لبعض بشائر القرآن والنبوة ، بأن المستقبل للإسلام .

ولما كان المستقبل للإسلام ، يصنعه حملة رسالة الإسلام ، وفي مقدمتهم المجاهدون ، كان لا بد من الحديث عن المجاهدين ، وأهل الذكر ، في ساحات الجهاد .. خاصة ونحن نرى صراع الإسلام مع أعدائه ، متفجراً في شتى بقاع العالم ... كما كان لا بد من الحديث عن القنوت ، لحاجة صناع المستقبل للقنوت إلى الله ، والارتباط به ، وخاصة في النوازل ، ومواجهة التحديات ، التي يصارعونها ، وهم يصنعون مستقبل الإسلام المشرق بإذن الله .

ومما يشكل الركن الأساس ، في صياغة مستقبل الإسلام ، تطبيق الشريعة الإسلامية، بل هو أهم ثمرات الجهود ، التي تبذل في ميادين الجهاد وغيرها ، ونحن اليوم في عالم اختلطت فيه المجتمعات ، وتعددت فيه الملل والثقافات ، حتى في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية ، فكان السؤال الذي لا بد من بيان الجوانب المتعلقة به ، وهو ما يتعلق بتطبيق أحكام الشريعة في المجتمعات ، التي تتعدد فيها الملل والثقافات .

والحمد لله في البدء ، وفي الختام .

الدكتور أحمد علي الإمام

رمضان ١٤١٥هـ

بشائر مستقبل العالم الإسلامي في وجه التحديات الحضارية المعاصرة

منذ بزوغ فجر الرسالة ، والإسلام يعيش في دورات من الصراع، والتداول الحضاري . . يواجه التحديات الثقافية والاجتماعية ، ويتفاعل مع التجارب الإنسانية من حوله .

يدافع الكفر ، ويدعو لتحرير العباد ، وتنمية المجتمعات ، ويجادل بالحسنى، متميزاً بعقيدته ، وشموخ بنيانه الحضاري المتفرد .

والوقوف على التحديات ، المعاصرة منها ، والمستقبلية ، يقتضي وقفة مراجعة وتقويم ، لمواقفنا ، ومؤسساتنا الثقافية ، فنبيِّن عناصر الإيجاب ، التي اكتسبتها ، وننبه على أوجه السلب والقصور ، التي لحقت بها ، حتى يستقيم أمرها ، وتعتدل في وجه التحديات الحضارية المعاصرة .

ولعل من عناصر الإيجاب في ثقافتنا ، ذاك الاهتمام بالرصيد الهائل للمسلمين – علماً نظرياً ، وعملاً تطبيقياً – في مجالات العلوم ، والمعرفة ، والثقافة ، وما صاحب ذلك من اجتهاد فقهي متجدد ، يحيط بالواقع ، ويسعى لمواجهة المشكلات المستجدة . وفي مقابل هذا الكسب الإيجابي ، فإن واقعنا الثقافي اليوم ، يعاني من مشكلات التبعية والتقليد ، والفهم القاصر للذات ، وجهود سلفنا العظام ، فهماً لا يبلغ الشمول والتكامل ، ولا يراعي الوحدة الموضوعية في شرح النصوص ، ويهمل متغيرات الحاضر والعصر . . كما أن بعض المؤسسات الفكرية والثقافية ، وبعض أفرادنا وجماعتنا ،انحرفت وراء الغرب ، تنادي بتجزيء الإسلام وتبعيضه ، بين إسلام أصولي ، وإسلام سياسي، وإسلام صوفي ، وتفصل بين الدين والسياسة ، وتخذل روح الجهاد، والاجتهاد ، والتأصيل ، متناسية أن الدين كلمة شاملة ، جامعة للمعاني العملية، التي تقيم الحياة الدنيا والآخرة .

وإذا كان المسلمون قد عانوا من الغفلة لقرون مضت ، ثم انتبهوا ، فإن الصحوة الراهنة، قد جلبت عليهم عداءً متصاعداً ، وأدخلتهم في دائرة صراع جديد ، شكلاً ومضموناً .. وقد يكون المطلوب منا ، أن نسعى لنقل هذا الصراع المتصاعد ، إلى دائرة الحوار ، وأن نبادر إلى فهم الغرب ، وأساليبه ، وأن نعد العدة .

والثقافة الإسلامية ، وسيط اجتماعي فاعل ، وحي ، يسهم في تحقيق التنمية الشاملة ، ويؤسس لنهضة جديدة للحضارة الإسلامية ، التي هي حضارة أمة منتجة ، عاملة ... معتنية بالتنمية ، والاعتماد على الذات .. حضارة أمة تعتقد جازمة ، بما تواتر لديها من الأدلة ، والنقول ، والإرهاصات، أن لها المستقبل كله ظهوراً ، وانتشاراً ، وأن عاقبة أمرها النصر والتمكين .

تحديات .. وتميز

مقدمة في تعريف التحديات الحضارية المعاصرة وتميز الحضارة الإسلامية

١ - مفهوم الحضارة :

الحضارة ، في تعريف بعض الباحثين في علوم الحضارة ، تعني العمران ، والإنتاج الثقافي ، والنظام الاجتماعي [١] ، فهي كما عرفها ابن خلدون : «أحوال عادية، زائدة على

(١) - المدنية : الإنتاج المادي (في إطار وسائل الإنسان).
- الثقافة : كل إنتاج ودراسات تتم في إطار الإنسان : سلوكة نظمه وقيمه .
- الحضارة : الإبداع البشري ، في إطار الثقافة والمدنية معاً .
وهي كلها متداخلة .
- انظر مقدمة عمر عبيد حسنه ، لروح الحضارة الإسلامية ، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ص١١- ١٢.

وإذا كان المسلمون قد عانوا من الغفلة لقرون مضت ، ثم انتبهوا ، فإن الصحوة الراهنة، قد جلبت عليهم عداءً متصاعداً ، وأدخلتهم في دائرة صراع جديد ، شكلاً ومضموناً .. وقد يكون المطلوب منا ، أن نسعى لنقل هذا الصراع المتصاعد ، إلى دائرة الحوار ، وأن نبادر إلى فهم الغرب ، وأساليبه ، وأن نعد العدة .

والثقافة الإسلامية ، وسيط اجتماعي فاعل ، وحي ، يسهم في تحقيق التنمية الشاملة ، ويؤسس لنهضة جديدة للحضارة الإسلامية ، التي هي حضارة أمة منتجة ، عاملة ... معتنية بالتنمية ، والاعتماد على الذات .. حضارة أمة تعتقد جازمة ، بما تواتر لديها من الأدلة ، والنقول ، والإرهاصات، أن لها المستقبل كله ظهوراً ، وانتشاراً ، وأن عاقبة أمرها النصر والتمكين .

تحديات .. وتميز

مقدمة في تعريف التحديات الحضارية المعاصرة وتميز الحضارة الإسلامية

١ - مفهوم الحضارة :

الحضارة ، في تعريف بعض الباحثين في علوم الحضارة ، تعني العمران ، والإنتاج الثقافي ، والنظام الاجتماعي [١] ، فهي كما عرفها ابن خلدون : «أحوال عادية، زائدة على

(١) - المدنية : الإنتاج المادي (في إطار وسائل الإنسان).
- الثقافة : كل إنتاج ودراسات تتم في إطار الإنسان : سلوكه نظمه وقيمه .
- الحضارة : الإبداع البشري ، في إطار الثقافة والمدنية معاً .
وهي كلها متداخلة .
- انظر مقدمة عمر عبيد حسنه ، لروح الحضارة الإسلامية ، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ص١١- ١٢.

الضروري من أحوال العمران » ، زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه ، وتفاوت الأمم ، في القلة والكثرة ، تفاوتاً غير منحصر .. »[1]. أو كما عرفها ول ديورانت هي : نظام اجتماعي ، يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي[2] . وقد درس الدكتور أبو زيد شلبي التعريفين ، واستخلص منهما أن الحضارة هي :

« مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم ، في نواحي نشاطها الفكري ، والعقلي، من عمران، وعلوم ، ومعارف ، وفنون ، وما إلى ذلك ، والترقي بها في مدارج الحياة ومسالكها، حتى تصل إلى الغاية التي تواتيها بها أحوالها ، وإمكانياتها المختلفة »[3] .

٢ - الحضارة الإسلامية :

والحضارة الإسلامية ، ذات نسب عريق في الحضارات ، سبقاً ، ورسوخاً ، وشمولاً ، ومحتوىً ، لكونها بحكم نسبتها إلى الإسلام ، متسمة بالخلود ، ولا تزال آثارها المادية والمعنوية باقية ، وإسهاماتها في الحضارة الكونية ، والنهضة العلمية المعاصرة ، ظاهرة[4] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، فصل « في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول » .. وفي فصل : « انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة » ، يقول ابن خلدون : والحضارة إنما هي تفنن في الترف ، وإحكام الصنائع المستعملة ، في وجوهه ومذاهبه ...
وراجع طبقات الأمم ،لأبي القاسم صاعد الأندلسي ، ص ٦٥ و ٦٦ - وانظر تاريخ الحضارة الإسلامية ،ص١٠.

(٢) انظر ، قصة الحضارة ، عناصر الحضارة (وعوامل تكوينها)، ول ديورانت ، ص ٣ ، ج ١ .

(٣) انظر : د . أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ، ط ٦ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤ م ، ص ٢٧٣ - ٣٧٩، وكتاب أثر الشرق في الغرب ، للمستشرق الألماني جورج يعقوب، ط مطبعة مصر ، ١٣٦٥ هـ ، ود. على عبد الله الدفاع : أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك ، ط١، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١ هـ -١٩٨١م .
وقد أحال د . شلبي على مقدمة ابن خلدون ، فصل : في أن الحضارة في الأمصار من قبل الدول ، ونهضة الحضارة ، ويل ديورانت ، ج ١ ، ص ٣ .

(٤) أول صورة تبدت فيها الثقافة ، هي الزراعة، إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً ومبرراً ، إلا إذا استقر في مكان يفلح تربته ، ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مواردأ لطعامه.. في هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة ، أعني بها مورداً محققاً من ماء وطعام ، ترى الإنسان يبني لنفسه الدور ، والمعابد ، والمدارس ، ويخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج .. انظر: قصة الحضارة ، ص ٥ / ج١ ، و راجع طبقات الأمم ، ص ٦٥ .

وقد قامت الحضارة الإسلامية على ركن شديد من القيم الأصيلة ، الراسخة، والحارسة، لأسباب الرقي البشري ، والرعاية لكرامة الإنسان [1] ، وحرماته ، من التوحيد ، والعدل ،والإحسان ، والمساواة ، والإصلاح ، والصدق ، والعفاف، والأمانة ، والعلم ، والرحمة ، والرفق ، وحسن الخلق ، والإخلاص ، والتجرد ، والعمل الصالح .

ولا عجب ، إذ هي وليدة التربية الإيمانية ، فردية وجماعية ، بين مكة والمدينة ، فأقامت صوراً مشرقة ، حيث أقامت الحضارة الفكرية ، التي ظهرت في تآليف العلماء ، المبثوثة في الأنحاء ، وقد سبقت غيرها في أبحاث العلوم الشرعية ، والاجتماعية ، والطبيعية، واللغوية ، مع العناية بالعمران ، والجمال التوحيدي ، في المساجد ، والجامعات ، والمدارس ، والقصور في المدن الإسلامية العريقة ، في مشارق العالم الإسلامي ، ومغاربه ، وأسست أركاناً، وقوائم راسيات للعلم التجريبي ، اعتمدت عليها المؤسسات والجامعات الأوربية، وقامت عليها النهضة العلميةالمعاصرة [2] .

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، مطبعة الحلبي ، ١٣٦٤ هـ .. يقول جوستان لوبون : ما عرف التاريخ فاتحاً، أعدل ولا أرحم ، من العرب المسلمين ، في فتوحاتهم .

(٢) انظر مختصر التاريخ العام ،ج. هـ. ويلز ، ص ٣٠٢ .
إذا كان القارئ ، يتخيل أن موجة الإسلام ، قد غمرت بهذا الفيض الذي فاضته، بعض مدنيات شريفة ، فارسية، أو رومانية ، أو يونانية ، فيجب أن يرجع عن خياله هذا حالاً ! فإن الإسلام قد ساد ، لأنه أفضل نظام اجتماعي، وسياسي، تمخضت به الأعصر .. و أن الإسلام قد ساد ، لأنه وجد أمماً استولى عليها الخمول ، وكان فاشياً فيها الظلم ، والنهب ، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب، فلما جاء الإسلام ، لم يجد إلا حكومات مستبدة ، ومستأثرة ، منقطعة الروابط بينها وبين رعاياها ، فأدخل الإسلام في أعمال الخلق ، أوسع فكرة سياسية عرفها البشر، وقدم إلى البشرية ، يد المعونة .
وانظر حاضر العالم الإسلامي : لوثروب ستودارد ، (ترجمة عجاج نويهض)، علق عليه شكيب أرسلان (وانظر تعليقه ، أو مقاله فيه : لماذا الإسلام راق بذاته ، والشعوب الإسلامية غير راقية ؟)
كاد يكون نبأ نشؤ الإسلام ، النبأ الأعجب ، الذي دوّن في تاريخ الإنسان . وعلى شدة هذه المكاره ، يعد نصر الإسلام ، نصراً مبيناً عجيباً ، إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الإسلام خفاقة ، من البرانس حتى هملايا ، ومن صحارى أوسط آسيا ، حتى صحارى أوسط أفريقية .
ثم انظر : العوامل المساعدة على ذلك : أخلاق العرب ! وماهية تعاليم صاحب الرسالة ، وشريعته ، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر ، في ذلك الوقت.

٣ - بين الحضارة الغربية المعاصرة والحضارة الإسلامية :

(أ) الحضارة الغربية في الأساس ، حضارة صناعية تقنية ، فاقدة للتقوى، تحولت إلى حضارة استكبارية باطشة ، تركت الجدال بالحسنى ، وجاءت للناس على متن المقاتلات ، والمدرعات ، تمشي بينهم بالتقتيل، والتشريد ، والاضطهاد ، والإبادة ، ويشهد لذلك الحرب العالمية الأولى ، والثانية ، وأخيراً، النظام العالمي الجديد .

أما حضارة الإسلام ، فتقوم على الجمع بين التقوى والتقانة ، دون تعارض أو تنافر.

(ب) والحضارة الغربية ، من ناحية أخرى ، تقوم على تمجيد العقل ، والاعتماد عليه وحده ، بينما تقوم الحضارة الإسلامية على التوفيق بين العقل والوحي ، فليس فيها خصام ، أو فصام بين الدين ، والعلم ، كما كان في أوربا، بل يتواءم العلم والإيمان : الإيمان القائم على العلم .. والعلم المؤمن، الداعي للإيمان .

(جـ) الحضارة الإسلامية ، تقوم على السلام العالمي، والأمن الداخلي[١] ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الأنفال : ٦١) ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة :٨) .

وفي الحديث النبوي :« **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** »[٢] و « ... **المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم** »[٣] .

---

(١) الإشارة إلى عدم الإكراه في الدين ، والسماح لغير المسلمين بوضع محترم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

بل تتجاوز حضارة الإسلام ذلك ، إلى الاتساق، والانسجام ، والتوافق ، والتوازن، مع نظام الكون والحياة ، والإنسان [١] ، حيث أن الحقيقة الدينية في خلق الإنسان ، وتمام إسلامه: إعمار الكون ، بالصلاح ، والفلاح ، بعد تسخيره له : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية : ١٢-١٣) .

(د) يتجلى هدي الإسلام ، في تسخير الكون للإنسان ، ليؤدي شكر النعمة، بينما تسعى الفلسفة المادية ، لتسخير الإنسان ، وتعبيده للكون ، وظاهر الحياة الدنيا [٢] .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصراع بين حضارة الإسلام ، وحضارات غيره ، صراع مستمر ، إلا أن الحقيقة ، التي يجب أن تبقى ناصعة ، واضحة ، بينة ، هي أن العاقبة لأهل التقوى ، والبقاء للحق ، والخير ، والبر ، وما ينفع الناس:﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الرعد : ١٧) .

---

(١) يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، في روح الحضارة الإسلامية ، ص ٢٢ - ٢٣ :
امتازت حضارة الإسلام بالانسجام ، والأمن ، و ليس ذلك مقصوراً على انسجام وأمن اجتماعيين خارجيين، تأتلف بهما العناصر والطبقات ، وتُتقى بهما ويلات الحروب الاجتماعية ، ولكن الانسجام ، والأمن ، اللذين امتازت بهما الحضارة الإسلامية ، يبتدئان انسجاماً وأمناً داخليين، فرديين ،تأتلف فيهما المدارك الإنسانية، وتُتقى بهما ويلات داخل النفس الإنسانية ، هي ويلات الحيرة، والاضطراب ، وتنازع الأفكار والعواطف ، وحرب بين المعقولات والعقائد ، وتقسيم بين الروحانيات ، والماديات ، ومقتضيات المصالح ، وواجبات الأخلاق .

(٢) يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة ، في تقديمه لكتاب روح الحضارة الإسلامية ، ص ٢ : ولعل من أهم الخصائص ، التي امتازت بها الحضارة الإسلامية ، هي هذا الهدي المقصدي للإنسان ، الذي أحدث التفاعل ، بين عطاء الوحي ، وتطلعات العقل ، وأشواق النفس، بحيث ارتقى بموقع ، ووظيفة الإنسان ، من مجرد وسيلة ، وأداة للإنجاز الحضاري ، إلى مستوى جعل معه المنجزات الحضارية، التي يبتدعها ، وسائل مسخرة لخدمته ، وتحقيق إنسانيته ، والارتقاء بموقعه ، وجعله مسخَّراً للكون ، بدل أن يكون مسخَّراً له ، فهوالإنسان المكلف ، وفي الوقت نفسه ، الإنسان المكرم ، ولذلك كان بين تعاليم الوحي، وتطلعات العقل ، تواعد ، والتقاء ، فأثمر ذلك كله ، إنسانية الحضارة الإسلامية ، التي رسم مساراتها ، وحدد أهدافها الوحي ، وحقق إنجازتها في المستويات المتعددة ، وابتكر وسائلها ، الإنسان المكلف .. قال تعالى: { ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير} (الملك : ١٤).. فالهدي وبيانه ، من الوحي، والاستدلال ، والبرهان ، من كشف العقل ، قال تعالى : {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق } (فصلت : ٥٣) ، فالوحي يحدد الأهداف، والعقل يكشف السنن ، ويبدع الوسائل، التي تحقق الأهداف .

الخطـــر المخـــيف

خطر الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى ، يكون محدوداً لو بقي المسلمون معتصمين بدينهم ، متميزين بأصالتهم ، ولكن فقدان هذا، هو النذير بالخطر ، لأنه يعني فقدان الانتماء ، والإحساس بالذات . .والمسلمون إنما يدركون ذاتهم من طريقين :

(أ) من طريق وحدتهم ، التي تكونها المفاهيم ، والتعاليم ، والقيم المشتركة .

(ب) ومن طريق مخالفتهم للآخرين ، والتي تنشأ عن المغايرة ، والمفارقة في الاعتقاد، والعبادة ، والإخلاص .

وهذا التمييز والتمايز ، الذي يجب أن يبقى ، هو الأمانة التي تلقاها كل جيل عمن قبله ، ولابد أن يحملها إلى من يجيء بعده ، ليبقى مستعراً ، متقداً ، يواجه كل التحديات، والحضارات، على مر الأزمان، إلى يوم تبديل الأرض غير الأرض والسموات[١] .

فإن فقد هذا الإحساس ، وزال هذا التمييز، واجهنا خطراً أكبر ، يتهدد أصالتنا ، ويهد أركان بقائنا[٢] . ذلك الخطر ، يتمثل في تقليدنا ، وتبعيتنا للملل ، والحضارات الأخرى ،

---

(١) انظر : د. محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ص ١١٨ – ١١٩ .

(٢) نكر الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، في روح الحضارة الإسلامية ، ص ٦٨ – ٦٩ ، أن حضارة الإسلام ، المعتد بها ، هي الصورة اليقظة الفكرية ، والهمّة الإنشائية ، التي تولدت من حرارة إيمان المسلمين ، في الأجيال الأولى ، فمكنتهم من أن يخرجوا عن المحيط الإقليمي ، إلى المحيط العالمي ، وأن يتناولوا المعارف كلها ، بداع من إيمانهم الديني ، ولغاية تبدو في عظمة دينهم، يستباح الفداء فيها ، والهلاك من أجلها ، فطلبوا المعارف ونالوها ، وجمعوا بين أطرافها ، وهضموها ، وصنفوها ، وتحكموا فيها ، فتطورت على أيديهم ، وتواصلت ، وتقابست ، وتأصل ما بينها وبين دينهم ، فانطبعت بشخصيتهم ، وتأثرت بأوضاعهم الفكرية الأساسية ، التي هي أوضاع الفكرة الدينية ، التي أنشأ الإسلام عليها أفكارهم ، والسكينة الإيمانية ، التي رتبت دعوة الإسلام عليها نفوسهم .. هذه الحضارة ، هي التي ولدت ، مازدهر به التاريخ الإسلامي ، من المعارف ، والآداب ، والصنائع، والفنون ، فكان المسلم ، الذي هو منشئ تلك الآثار الباهرة ، من الحضارة ، سيدها ، ومعمرها ، بإيمانه القوي ، وروحه المتقدة ، وفكره المتوثب ، وخلقه الطاهر، وسلوكه الأمين .

وقد حذرنا رسولنا الكريم ﷺ من خطورة التقليد والتبعية لغيرنا ، فقال: « **لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه** »، وقد ورد هذا الحديث بروايتين، بإحداهما : قالوا: اليهود والنصارى ؟ وفي الأخرى قالوا: الفرس والروم ؟ فاقرهم .. (١) .

إذ حيث كان تقليدهم في العبادات ، كانت الإشارة إلى اليهود والنصارى ، وحيث كان تقليدهم في الحضارة ، والثقافة ، كانت الإشارة إلى الفرس والروم .

توجيه الصراع الحضاري

قدر الله أن نكون أمة الرسالة الخاتمة ، ولذلك فإن أعدى من عادانا ، في الماضي ، هم أهل الكتاب ، ومن والاهم على هذه المعاداة، ممن قادوا حملات الحروب الصليبية، من العواصم الأوربية ، على المسلمين ، وهكذا كانت بداية الغرب في اتصاله بالعالم الإسلامي ، عن طريق المواجهات العسكرية أولاً ، ثم الإدارة الاستعمارية ، أو الاستخرابية ثانياً ، فأصاب المسلمين من جراء ذلك غزو عسكري سياسي ، واستغراب فكري ثقافي ، واجتماعي ، ونهب اقتصادي .

ثم لما نهض المسلمون ، وبدأوا مسيرة العودة إلى الجذور ، عاد خصومهم للحرب

= فلما تحولت به الحال ، عن تلك المعاني السامية ، بقيت مظاهر الحضارة ، ومعالمها ، ونشأت بعدها مظاهر ومعالم أخرى ، ولكن المسلم لم يبق سيدها ، ومعمرها ، وإن كانت تنشأ في أرضه ، وبيده ، وعن معرفته ، لأنه أصبح أسيرها ، وعامل فسادها ، وخرابها ، لما فقد ما كان عنده من قوة في الإيمان ، والروح ، والفكر ، والخلق، والسلوك .

(١) رواه البخاري ، ونصه : « لا تقوم الساعة ، حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع» قيل : يا رسول الله : كفارس والروم ؟ فقال : « ومن الناس إلا أولئك » .

وقد حذرنا رسولنا الكريم ﷺ من خطورة التقليد والتبعية لغيرنا ، فقال: **« لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »**، وقد ورد هذا الحديث بروايتين، بإحداهما : قالوا: اليهود والنصارى ؟ وفي الأخرى قالوا: الفرس والروم ؟ فاقرهم .. [(١)] .

إذ حيث كان تقليدهم في العبادات ، كانت الإشارة إلى اليهود والنصارى ، وحيث كان تقليدهم في الحضارة ، والثقافة ، كانت الإشارة إلى الفرس والروم .

توجيه الصراع الحضاري

قدر الله أن نكون أمة الرسالة الخاتمة ، ولذلك فإن أعدى من عادانا ، في الماضي ، هم أهل الكتاب ، ومن والاهم على هذه المعاداة، ممن قادوا حملات الحروب الصليبية، من العواصم الأوربية ، على المسلمين ، وهكذا كانت بداية الغرب في اتصاله بالعالم الإسلامي ، عن طريق المواجهات العسكرية أولاً ، ثم الإدارة الاستعمارية ، أو الاستخرابية ثانياً ، فأصاب المسلمين من جراء ذلك غزو عسكري سياسي ، واستغراب فكري ثقافي ، واجتماعي ، ونهب اقتصادي .

ثم لما نهض المسلمون ، وبدأوا مسيرة العودة إلى الجذور ، عاد خصومهم للحرب

= فلما تحولت به الحال ، عن تلك المعاني السامية ، بقيت مظاهر الحضارة ، ومعالمها ، ونشأت بعدها مظاهر ومعالم أخرى ، ولكن المسلم لم يبق سيدها ، ومعمرها ، وإن كانت تنشأ في أرضه ، وبيده ، وعن معرفته ، لأنه أصبح أسيرها ، وعامل فسادها ، وخرابها ، لما فقد ما كان عنده من قوة في الإيمان ، والروح ، والفكر ، والخلق، والسلوك .

(١) رواه البخاري ، ونصه : « لا تقوم الساعة ، حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع» قيل : يا رسول الله : كفارس والروم ؟ فقال : « ومن الناس إلا أولئك » .

العدوانية ، بأوهى الأسباب والحجج ، وبمعايير مزدوجة في التعامل ، خاصة بعد اختفاء التحدي الذي كان يمثله الاتحاد السوفيتي ، في مواجهة أمريكا ، زعيمة النظام الرأسمالي .

وقد صارت هذه القوة العسكرية ، هي سبيل الحضارة الغربية الأوحد في إسكات صوت المسلمين ، إن طلبوا رقيّاً ، أو سعوا إلى الالتزام بشريعتهم ، أو أرادوا إصلاح حالهم ، أو تحرير قرارهم ، أو تصحيح انتمائهم ، وذلك بعد ما كانت من قبل تستخدم قوتها الاقتصادية ، ومعوناتها ، وقمحها ، في فتنة المسلمين ، وصدهم عن سبيل الله .

هذه العلاقة بيننا وبين الغرب ، علاقة متخلفة في الحوار الفكري ، والصراع الحضاري ، لذلك قد يكون المطلوب : العمل على توجيه هذا الصراع ، من صراع العسكر ، وتحويله ، إلى صراع الحوار .. نصرفهم عن علاقة الحمية والقتال ، إلى علاقة التحاور ، والجدال بالحسنى ، فإن استطعنا ذلك ، نكون قد حولنا صراع الحضارات ، من التقاتل ، والتحارب حول الموارد ، ورغيف العيش ، إلى صراع حول الثقافة والتحاور .

غير أن هذا التحويل ، وهذا التوجيه ، يتطلب منا أموراً عدة، لعل أهمها :

(أ) تحديد القضايا والموضوعات، التي يصب عليها، ويدور حولها، الحوار.

(ب) الاجتهاد في تجديد وتقويم الوسائل ، التي نقيم بها الحجة عليهم .

(جـ) أن نهتم بالمثال ، والأنموذج الفعلي ، لا أن نعتمد مجرد المقال .

(د) أن نكون عالمين بما لدى غيرنا ، وخصوصاً الدين المقارن ، وقد سنّ لنا الرسول ﷺ هذه السنة ، فيما أخرجه الإمام أحمد عن عدي بن حاتم قال : (دخلت على رسول الله ﷺ فقال : « **يا عدي أسلم تسلم** » ، فقلت : إني من أهل دين ، فقال : « **أنا أعلم بدينك منك** » ، فقلت : أنت أعلم بديني مني؟ قال « **نعم ، ألست من الركوسية** [1] ،

(١) الركوسية : ديانة بين النصارى ، والصابئين .

وأنت تأكل مرباع قومك ؟ » قلت : بلى ، قال : « **هذا لا يحل لك في دينك** » . قلت : نعم . فلم يعد بعد أن قالها ، فتواضعت لها) . الحديث [1] . . . وهو دال على أن العلماء المسلمين ، ينبغي أن يكونوا أعلم بما عند المخالفين ، وخاصة من ابتلي بهذه المهمة.

(هـ) إعداد دعاة منا ممن عاش في الغرب ، وعرف لغاتهم ، ومصطلحاتهم، وطرائقهم في التفكير ، ومداخلهم في التعامل ، ليؤدوا مهمة الحوار ، والتواصل الثقافي والحضاري .

(و) أهمية إعداد العدة ، وامتلاك القوة ، والتقدم العلمي ، والتفرد الحضاري ، والتمييز الأخلاقي ، لنفرض على « الآخر » احترامنا ، حتى يسمع كلامنا ، بعد إزاحة العوائق التي يضعها بيننا وبينه ، بل بيننا وبين قومنا .

عناصر الإيجاب والسلب في مواقفنا ومؤسساتنا الثقافية

حتى نقف على التحديات الحضارية ، المعاصرة ، والمستقبلية – كما أسلفنا – لابد من وقفة مراجعة ، وتقويم لمواقفنا ، ومؤسساتنا الثقافية ، نصحب مراكز الثقافة ، وأدواتها ، وقدراتها ، وطاقاتها ، لمواجهة المتغيرات ، فنبيِّن عناصر الإيجاب ، التي اكتسبتها ، وننبه على أوجه السلب ، والقصور ، وبيان أسبابها ، في محاولة للخروج منها ، وتصحيحها ، وتقويمها ، لتعتدل ، وتستقيم في وجه التحديات الحضارية ، المعاصرة ، والمستقبلية.

---

(١) انظر السيرة النبوية ، لابن كثير ، ج ٤ /١٢٣-١٢٩ ، وتفسير ابن كثير ، ج ٣ /٣٤٩-٣٥٠ .

وأنت تأكل مرباع قومك ؟ » قلت : بلى ، قال : « **هذا لا يحل لك في دينك** » . قلت : نعم . فلم يعد بعد أن قالها ، فتواضعت لها) . الحديث [١] . . . وهو دال على أن العلماء المسلمين ، ينبغي أن يكونوا أعلم بما عند المخالفين ، وخاصة من ابتلي بهذه المهمة.

(هـ) إعداد دعاة منا ممن عاش في الغرب ، وعرف لغاتهم ، ومصطلحاتهم، وطرائقهم في التفكير ، ومداخلهم في التعامل ، ليؤدوا مهمة الحوار ، والتواصل الثقافي والحضاري .

(و) أهمية إعداد العدة ، وامتلاك القوة ، والتقدم العلمي ، والتفرد الحضاري ، والتمييز الأخلاقي ، لنفرض على « الآخر » احترامنا ، حتى يسمع كلامنا ، بعد إزاحة العوائق التي يضعها بيننا وبينه ، بل بيننا وبين قومنا .

عناصر الإيجاب والسلب في مواقفنا ومؤسساتنا الثقافية

حتى نقف على التحديات الحضارية ، المعاصرة ، والمستقبلية – كما أسلفنا – لابد من وقفة مراجعة ، وتقويم لمواقفنا ، ومؤسساتنا الثقافية ، نصحب مراكز الثقافة ، وأدواتها ، وقدراتها ، وطاقاتها ، لمواجهة المتغيرات ، فنبيِّن عناصر الإيجاب ، التي اكتسبتها ، وننبه على أوجه السلب ، والقصور ، وبيان أسبابها ، في محاولة للخروج منها ، وتصحيحها ، وتقويمها ، لتعتدل ، وتستقيم في وجه التحديات الحضارية ، المعاصرة ، والمستقبلية.

---

(١) انظر السيرة النبوية ، لابن كثير ، ج ٤ /١٢٣-١٢٩ ، وتفسير ابن كثير ، ج ٣ /٣٤٩-٣٥٠ .

أولاً : عناصر الإيجاب :

(أ) للمسلمين رصيد هائل – علماً نظرياً ، وعملاً تطبيقياً – في مجالات العلم ، والمعرفة ، والثقافة ، والحضارة .

(ب) المسلمون هم أول من أقام المكتبات ، وأنشأ مراكز الترجمة ، والمعاهد الأهلية ، والشعبية ، وكانوا رواداً في كل موضوعات العلوم ، وقد بذلوا الجهود العلمية ، والمعرفية ، وعرفوا بالتسابق العلمي ، وتقدير النابغين فيه ، مهما كان اختلافهم ، وإن كانوا من غير المسلمين ،فقد احتوت كتب طبقات العلماء ، على تراجم عدد من العلماء ، من غير المسلمين، في العلوم الطبية ، والهندسية .

(جـ) كانت المحاضر ، والجوامع الجامعية ، في حواضر العالم الإسلامي ، تعلم إلى جانب العلوم الشرعية ، والعربية ، العلوم الطبية ، والهندسية ، وكانت المحاضر الأندلسية ، تستقبل الطلاب من أوربا وغيرها .

(د) لم يعرف المسلمون هذا الانفصال بين ما يسمى بالعلوم العصرية ، والعلوم الدينية ، إلا على آخر عهود السلاطين العثمانيين ، وكان هذا الانفصال من أخطر ما أثر في تخلف المسلمين علمياً .

(هـ) ومن إيجابيات حضارتنا ، أن العلماء ،والفقهاء – على بعض الفترات– انفتحوا للعصر ، والحال ، بفهم للواقع ، وفقه للمرحلة التي يعيشونها، مع سعة أفق ، وعمق إدراك ، وصاروا يعالجون المشكلات المستجدة، والقضايا المتجددة ، والحوادث العارضة .

(و) يطبقون الشريعة ، وفق مقتضيات العصر والحال ، مع التفريق بين الشريعة ، والتطبيق الفقهي ، ومراعاة ظروف المجتمع ، ولهذا كان استخدام العرف .. ومن المعلوم عند أهل أصول الفقه ، أنه لا ينكر تغير الأحكام والفتوى، لتغير الأزمنة ، والأحوال ،و العوائد ،

والنيات .. ومن طريف ما يذكر هنا ، حكاية العلامة زروق الفاسي (ت ٨٩٩) في شرحه لرسالة بن أبي زيد القيرواني ، أن الشيخ أبا محمد بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦)، صاحب الرسالة المشهورة في فقه المالكية ، انهدم حائط بيته ، وكان يخاف على نفسه من بعض الطوائف ، فربط في موضعه كلباً ، اتخذه للحراسة ، فقيل له : إن مالكاً يكره ذلك! فقال رحمه الله : لو أدرك مالك زمانك ، لاتخذ أسداً ضارياً !؟ (١) .

(ز) ولابد هنا من إشارة إلى الومضات ، والإضاءات التجديدية ، والاجتماعية ، بين عدد من قادة الحركات ، والمؤسسات الإسلامية ، في عالمنا المعاصر ، مما يبشر بمستقبل زاهر .

ثانياً : عناصـــر الســـلب :

إن كانت تلك هي بعض عناصر الإيجاب في مواقفنا ، ومؤسساتنا الثقافية، وفي عصرنا، وعالمنا ، فإن من أخطر عناصر السلب ، ومظاهر القصور :

(أ) عدم استكمال جهود التأصيل ، والتعريب ، في مؤسساتنا العلمية ، مع مضي هذه العقودمن سنوات استقلالنا ! مما يعني ضعف إرادة البناء ، والتبعية الثقافية للغرب(٢) .

---

(١) انظر : شرح العلامة زروق على الرسالة : ج٢ ، ص ٤١٤ ، ط دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ، وانظر : عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية ، د. يوسف القرضاوي ، ص ١١٣ ، ط دار الصحوة ، ١٤٠٦ هـ .

(٢) يقول الشيخ محمد الفاضل عاشور ، في روح الحضارة ، ص ٦٣ : لقد فقدت أمم ، غير الأمة الإسلامية، استقلالها ، ثم استرجعته ، ولكنها لم تسترجع كلها روح حضارتها ، وثقافتها ، لتبني عليها مستقبلها ، بل إن أكثرها جعل من استقلاله ، اتجاهاً جديداً نحو تقليد غيره ، فلم يكن استقلاله ليحدث أثراً في تاريخ الحضارة الإنسانية ، إذ قصر على أثره المادي في السياسة والاقتصاد ، فكان شأن هذه الأمم ، الشرقي منها ، والغربي، شأن العائد على غيره في شؤون الفكر، والثقافة ، وطوابع الحضارة . فليست نهضة اليابان ، نهضة بوذية ، ولا نهضة الصين ، نهضة كونفوشية ، ولا نهضة اليونان ، بعد استقلالها منذ القرن الماضي ، نهضة بيزنطية ، ولا إفلاطونية ، ولا ارسطوطاليسية ، بل ولا يونانية ، على الحقيقة ، بأيٍ حال من الأحوال .
فهل إنّ شأن الإسلام ، سيكون مقصوراً على هذا الوضع ، أو أنّ حضارة إسلامية الروح ، وثقافة إسلامية الطابع ، ستبدوان ، من بين ذلك القدر المشترك ، المؤلف بين شعوب الأمة الإسلامية ، الناهضة ، المستقلة ؟

(ب) الاشـتغال بدراسة اللغات الأوربيـة ، في برامج التعليم العالي ، على حسـاب حاجات أمتنا الفعلية ، وأولوياتنا الحضارية .

(جـ) عدم التخطيط للمستقبل ، بما يكافئ حجم الأخطار ، التي تواجهها أمتنا ، ومازال ما يسمى بالعالم الثالث ، ونحن جزء منه ، ينفق مالا يزيد عن ٣٪ فقط مما ينفق ، على الخطط ، والبرامج المستقبلية [١] .

(د) ومما يوثر سلباً على علاقتنا الثقافية ، ضعف التبادل التجاري ، والمعاملات بين الدول الإسلامية ، حيث لا تتجاوز نسبة ١٠ ٪ ، بينما تبلغ نسبة ٩٠٪ مع الدول الغربية ، مع ما عرفت به من احتكار ، واستغلال لمنتجاتنا الإسلامية ، فضلاً عن عدم قيام سوق إسلامية مشتركة ، في مواجهة السوق الأوربية المشتركة ، وغيرها من التكتلات الاقتصادية الأخرى .

(هـ) العلاقات الدبلوماسية ، بصورتها القديمة ، صارت متخلفة .. فالعلاقات بين الدول ، حوار ثقافي في المقام الأول ، حتى في العلاقات الاقتصادية ، والتبادل التجاري ، وهو حوار كامل ، قد يعبر عنه المثقفون بصورة شاملة ، تؤدي إلى حسن الفهم المشترك ، والتواصل .

(و) التبعية الفكرية ، والتقليد ، والكتب المدرسية المذهبية ، التي سادت في الفكر الإسلامي ، وعطلت تجديد الفكر .

(ز) الاشتغال بالبحوث النظرية ، النمطية دون أصالة ، أو تجديد ، أو اجتهاد ، وهي بحوث آلية ، لا تبعث روحاً ، ولا تزيد عن كونها تمارين رياضية .. وشيء عجيب

---

(١) مجلة المستقبل الإسلامي ، العدد الأول ، رجب ١٤١١هـ - يناير ١٩٩١ م ، لندن ، ص ٧ ، مقال الافتتاحية ، بقلم أحمد عثمان التويجري .

أن مؤسسات كثيرة في التعليم ، العالي خاصة ، تخرج حملة شهادات عليا ، يترفعون ، ويترقون في سلك الأستاذية ، دون أن يقدموا إضافات علمية مقدرة ، ولكن :

أما الديار فإنها كديارهم ..... وأرى نساء الحي غير نسائه

(ح) فهم بعض مؤسساتنا ، وأفرادنا ، وجماعاتنا ،للتراث ، وجهود سلفنا العظام ، فهماً قاصراً ، لا يبلغ الشمول ، والتكامل ، ولا يراعي الوحدة الموضوعية في فهم النصوص ، ولا يراعي الحاضر ، والعصر ، الذي نحن فيه ، بتدبر ، وتبصر ، وفقه .

(ط) استغلال الغرب لبعض المقصرين من أفراد ، وجماعات ، واستخدامهم لمصالحه، على حساب المسلمين ، تعطيلاً لجهودهم ، في العودة ، وكسب الصراع ، وإيقافاً لمسيرتهم ، حتى ساقهم ، بكثرة الطرق والإثارة ، إلى مواطن الخلاف ، يؤجج نار الفتنة بين المسلمين ، لصرفهم عن طريق النصر ، والعزة ، والتمكين ، بل ينعطف بهم عن هم التمكين ، والتفاعل مع الواقع ، والعصر ، إلى الثرثرة ، والجدل ، والمراء .. وبسبب ذلك مازلنا نتناظر حول المتشابهات ، ونتجادل حول غسل ، أو مسح قدم ، حتى صار بعضنا لا يملك من الأرض، موضع قدم !!

(ي) انحراف بعض المؤسسات الفكرية ، والثقافية ، وبعض أفرادنا وجماعاتنا ، وراء الغرب ، تنادي بتجزيء الإسلام ، وتبعيضه بين إسلام أصولي، وإسلام سياسي ، وإسلام صوفي ، فصلاً ، بين الدين والسياسة ، وتخذيلاً لروح الجهاد ، والاجتهاد ، والتأصيل ، بينما الدين كلمة شاملة ، جامعة للمعاني ، العلمية والعملية ، التي تقيم الحياة الدنيا ، والآخرة .

(ك) هجر كثير من المؤسسات الثقافية ، في العالم الإسلامي – خاصة تلك التي تدرس وتبث العلوم المدنية والطبيعية – للقرآن ، مخاصمة له ، مجافية إياه ، مبعدة له عن

تلك العلوم ، والمعارف .. فتدرس هذه العلوم ، كأن ليس للقرآن فيها دخل ، أو علاقة ، مع أنه أنزله رب العزة ، تبياناً لكل شيء .

وهجر القرآن في واقعنا المعاصر ، اتخذ صوراً ثلاث :

الأولى : الفصل بين كتاب الله المقروء ، وكتابه المنظور ، أي الكون .

الثانية : الأمية ، وأعني بها الأمية الحضارية ، والثقافية ، والدينية ، وأمية الحرف .

الثالثة : القصور عن فهم عالمية الدعوة .

١ - الفصل بين الكتاب المقروء والكتاب المنظور :

الفصل بين كتاب الله المقروء ، وهو القرآن ، وكتاب الله المنظور ، وهو الكون ، يشكل في خارطة همومنا اليوم ، تحديا كبيراً .

ولابد من إنهاء هذا الفصام ، وإزالة الخصام ، بين المصحف والكون ، في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ، حتى يكون الذي يتلو القرآن ، ناظراً في الكون ، يتأمل خلق السموات والأرض، ويتدبر سر التوافق بين الأجرام، والتوازن بين الكواكب ، ليهتف في الآخر مقراً موقناً : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٨) ،﴿ مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ (آل عمران : ١٩١) ، ويدرك سر وجوده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات : ٥٦) .

لهذا ندب القرآن قارئيه ، بالسير في الأرض ، تنقيباً للخيرات ، وطلباً للأرزاق ، واعماراً للكون ، واعتباراً بسننه ، وقوانينه ، ونواميسه : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(العنكبوت : ٢٠) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟

﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمـــــران : ١٣٧-١٣٨) ، ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر: ٥٧) ، وهذا هو سبيلنا إن أردنا حقاً أن يكون القرآن دستورنا .

٢ - الأمـــــية :

أن تبقى الأمية في العالم الإسلامي ، إلى يوم الناس هذا ، أمر لا ينبغي أن يكون ، لأنه بدون محوها وإبعادها عنا تماماً ، لا يمكننا إقامة أي صرح لحضارتنا ، إذ أن حضارة الإسلام قام أساسها على : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق :١-٢)، فكانت ﴿ ٱقْرَأْ ﴾، أو الأمر بالقراءة ، أول كلمة تتنزل من الســماء الدنيـا ، على قلب النبي محمد ﷺ .

ولكن حقيقة الإشكال ، ليست في الأمية الحرفية ، بقدر ما هي في الأمية الثقافية ، التي لا تعي الكتاب ، وإن نظرت فيه ، لا تتدبره ، وإن قرأ ت آياته.. إنها الأمية التي تجعل أصحابها يقيمون حروف الكتاب ، ويضيعون حدوده، وقد نعى الله تعالي هؤلاء فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد : ٢٤) ، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص : ٢٩) .. هذه هي حقيـقـة الإشـكال : الأمـيـة التي لا تعي الكتـاب ، ولا تتـدبره ، ولا تتـفـاعل دينيـاً مع مشكلات العصر.

٣ - القصور عن فهم عالمية الرسالة :

إن القصور عن فهم عالمية الكتاب ، يفضي إلى القصور في تبليغ الرسالة ، ونشر الدعوة في العالمين ، وقد قامت الأدلة على عالمية الرسالة منذ العهد المكي في تنزيل القرآن العظيم : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (القلم : ٥٢)﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (التكوير : ٢٧)،

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) .

وكان الرسول ﷺ تبعاً للكتاب الذي أُنزل عليه ، رسولاً للعالمين ، ورسالته رسالة عالمية : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحج:٤٩) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ : ٢٨) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، وأمته من ورائه أمة عالمية ، همها دولي ، ودعوتها للبشرية ، وما أخرجها الله إلا للناس ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣) .

دور التنمية الثقافية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشاملة

ونتجاوز العناصر السلبية في مواقف بعض مؤسساتنا وجماعاتنا ، التي لا تلبث أن تزول بنهضة الأمة ، نهضةً شاملةً ، بكل عناصر الحضارة ، الثقافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وهي جوانب يُعزز بعضها بعضًا ، ويُقويها ، لتسهم جميعًا في صياغة مستقبل الحضارة الإسلامية .

فالحضارة الإسلامية ، هي حضارة أمة منتجة عاملة .. معتنية بالتنمية، والاعتماد على الذات ، مع تفضيل للاستثمار الزراعي ، لكونه أكثر بركة ، ونفعاً، وأعظم تحقيقاً للأمن الغذائي،وحرية القرار ، والاستقلال .. وفي تقدير العمل ، وأهمية تداول المال ، واستثماره،

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) .

وكان الرسول ﷺ تبعاً للكتاب الذي أُنزل عليه ، رسولاً للعالمين ، ورسالته رسالة عالمية : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحج:٤٩) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ : ٢٨) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، وأمته من ورائه أمة عالمية ، همها دولي ، ودعوتها للبشرية ، وما أخرجها الله إلا للناس ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣) .

دور التنمية الثقافية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشاملة

ونتجاوز العناصر السلبية في مواقف بعض مؤسساتنا وجماعاتنا ، التي لا تلبث أن تزول بنهضة الأمة ، نهضةً شاملةً ، بكل عناصر الحضارة ، الثقافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وهي جوانب يُعزز بعضها بعضاً ، ويُقويها ، لتسهم جميعًا في صياغة مستقبل الحضارة الإسلامية .

فالحضارة الإسلامية ، هي حضارة أمة منتجة عاملة .. معتنية بالتنمية، والاعتماد على الذات ، مع تفضيل للاستثمار الزراعي ، لكونه أكثر بركة ، ونفعاً، وأعظم تحقيقاً للأمن الغذائي،وحرية القرار ، والاستقلال .. وفي تقدير العمل ، وأهمية تداول المال ، واستثماره،

بلغ فقهاؤنا مبلغاً عظيماً ، حتى إن بعضهم قال فيمن ضاع له مال ، أن يبذل مثله إن لزم إيجاراً في استخراجه ، حتى لا يعطل تداوله بين الناس .. ومن الفقه ، قطع الصلاة حفاظاً على روح متقوم .

والتوجيهات النبوية ، تحض على العمل والإنتاج ، يقول ﷺ : **« إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها »**[1] .

وقد سلكت بلادنا الإسلامية ، مذاهب شتى في التنمية ، ولكن فشلت كل محاولة في التنمية الاقتصادية ، أو الاجتماعية ، لكونها معزولة عن أصالة وتراث أمتنا . .إذ لا سبيل إلى نهضة أمتنا ، و سيادة حضارتنا ، إلا بالتماس الهدى من شرع الله .

وما دامت هذه نظرة الحضارة الإسلامية ، للتنمية والإنتاج ، فإنها إذاً تقوم على أمور ، هي :

أولاً : أن الإسلام يعارض جمع الثروات في يد واحدة ، أو أيد معدودة ، دون الناس، لذلك نادى القرآن بتوزيع الثروات ، من الفيء ، والغنيمة ، والزكاة ، والخراج ، والعشور ، والتركات بين أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ ﴾ (الحشر : ٧) .

ثانياً : الأرض لمن يحييها ، لمحاربة الإقطاع ، الذي كان يأخذ الأرض كلها، نظير ضرائب صغيرة .

ثالثاً : الملكية الحقيقية لله ، كما في أكثر من عشرين آية في القرآن ، نذكر منها :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد : ٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (النور : ٣٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ (الطلاق : ٧) .

---

(١) رواه البخاري ، في الأدب المفرد ، ح ٤٧٩ ، والإمام أحمد ، ١٨٣/٣ - ١٨٤-١٩١ .

أما الحضارة الغربية ، فإن نظرتها للثروة ، والمال ، تقوم على الرأسمالية ، التي تعطي للمالك الحرية المطلقة ، من حيث أنه هو المالك الحقيقي، الذي أوتي على علم عنده ، ولا علاقة لله بماله .

أي مستقبل لثقافتنا في وجه التحديات المعاصرة والمستقبلية ؟

المستقبل للإسلام ، ليس هو مجرد شعار نتبناه ، محوطاً بالأمل والرجاء ، إنما هو دين ، وعقيدة .. نؤمن يقيناً ، ونوقن بجزم ، أن المستقبل للإسلام ، لأن المسلم بحكم إسلاميته ، وتدينه ، يؤمن بالمستقبل ، وأن لكل مشكلة حلاً، ولكل مسألة جواباً ، ولكل داء دواءاً ، وقد قرر هذه الحقيقة كتابنا المحفوظ ، وسنة نبينا المعصوم .

١ - بشائر قرآنية :

فمن آيات النصر وبشائر المستقبل، في القرآن الكريم ، وهي بغير حساب :

(أ) قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٥) ، فوراثة الأرض ، مستقبل ينتظر الصالحين من عباد الله ، الذين التزموا دينه ، وأقاموا شرعته .

(ب) ويتأكد ذلك بظهور الإسلام ، وسيادته ، وهيمنته على الأديان كلها، مصداق قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) .

أما الحضارة الغربية ، فإن نظرتها للثروة ، والمال ، تقوم على الرأسمالية ، التي تعطي للمالك الحرية المطلقة ، من حيث أنه هو المالك الحقيقي، الذي أوتي على علم عنده ، ولا علاقة لله بماله .

أي مستقبل لثقافتنا في وجه التحديات المعاصرة والمستقبلية ؟

المستقبل للإسلام ، ليس هو مجرد شعار نتبناه ، محوطاً بالأمل والرجاء ، إنما هو دين ، وعقيدة .. نؤمن يقيناً ، ونوقن بجزم ، أن المستقبل للإسلام ، لأن المسلم بحكم إسلاميته ، وتدينه ، يؤمن بالمستقبل ، وأن لكل مشكلة حلاً، ولكل مسألة جواباً ، ولكل داء دواءاً ، وقد قرر هذه الحقيقة كتابنا المحفوظ ، وسنة نبينا المعصوم .

١ - بشائر قرآنية :

فمن آيات النصر وبشائر المستقبل، في القرآن الكريم ، وهي بغير حساب :

(أ) قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٥) ، فوراثة الأرض ، مستقبل ينتظر الصالحين من عباد الله ، الذين التزموا دينه ، وأقاموا شرعته .

(ب) ويتأكد ذلك بظهور الإسلام ، وسيادته ، وهيمنته على الأديان كلها، مصداق قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) .

٢ - بشائر نبوية :

والسنن ، جاءت تترى ، تثبت هذه الحقيقة ، وتقررها ، وتنبه عليها :

(أ) روى مسلم وغيره ، عن ثوبان ، وشداد بن أوس ، رضي الله عنهم ، مرفوعاً : **« إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ،ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها »** (١) .

(ب) وروى ابن حيان في صحيحه : **« ليبلغن هذا الأمر ما بلغ اليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر ، إلاّ أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر »** (٢) .

(جـ) وأخرج أحمد ، والدارمي ، والحاكم ، وغيرهم ، عن أبي رضي الله عنه ، قيل: قال : (كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : **« مدينة هرقل تفتح أولاً »** ، يعني القسطنطينية) (٣) .

(د) وفي صحيح مسلم ، عن النبي ﷺ قال : **« لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً »** (٤) ، وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة، أن أرض العرب ، كانت مروجاً وأنهاراً ، وأن دورة ستمر عليها ، لتعود مروجاً وأنهاراً .

٣ - من إرهاصات المستقبل :

إن كثيراً من الإرهاصات ، تنبيء بحقيقة أن المستقبل لحضارة الإسلام ، منها :

(أ) القيم الروحية ، والأخلاقية ، والمعنوية ، المميزة لحضارتنا .

---

(١) مسلم ، ١٧١/٨ ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة ، وأحمد .

(٢) ابن حبان في صحيحه ، ١٦٣١-١٦٣٢ .

(٣) أحمد ، ١٧٦/٢ ، والدارمي ، ١٢٦/١ ، ٤٢٢ ، ٥٠٨/٤ ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

(٤) مسلم ، ٨٤/٣ ، أحمد ٧٣/٢ ، الحاكم ٤٧٧/٤ .

(ب) امتلاك الأمة الإسلامية لمصادر الطاقة والحياة ، مع كونها وسطاً جغرافيا وتاريخياً ، يمثل سكانه خمس سكان العالم ، وما يتيحه لها ذلك من إمكانات .

(جـ) اعتماد الأمة الإسلامية ، فوق ذلك ، على دينها الخاتم ، المهيمن على الأديان .. الدين القائم على العلم ، وسيادة علومه، وحضارته .

(د) إفادة الأمة من حكم الآخرين وتجاربهم ، وحضاراتهم ، مع تفريق بين ما هو مقبول ، وما هو مردود ، وبين ما هو إسلامي ، وما هو جاهلي .

(هـ) وحدة الأمة ، وإحياء روابط الأخوة الإيمانية ،والقوة التي تنتج عن ذلك ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات : ١٠) .. وجعل النبي الكريم ، علامة الإيمان ، حب المؤمنين بعضهم بعضاً ، وكان يمثلهم يومئذ المهاجرون والأنصار ، فقال ﷺ : « **آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار** »[1] .

(و) علاقات العدالة ، والإحسان ، ورعاية الحرمات ، التي هي أوثق للدلالة ، من كونها مجرد حقوق للإنسان ، تواضع عليها قبيلٌ من الناس[2] .

فمقام الإحسان في الدين، في كل شيء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (النحل : ٩٠) .. وفي العبادة كلها ، يكون الإحسان ، كما في حديث

---

(١) رواه البخاري ، فتح الباري ، ح ٣٧٨٤ ، ١١٣/٧ .

(٢) وهنا تبرز نظرية ابن خلدون في مقدمته ، كما أوجزها الفاضل بن عاشور ، في روح الحضارة الإسلامية، حين نظر ابن خلدون إلى طبيعة الدولة الإسلامية ، ومقوماتها ، وفكك بين الأصول ، التي قامت عليها ، وبين الواقع الذي آلت إليه ، ورجع إلى النفسية الفردية للمسلم ، بين عهد السلف ، وعهد الخلف، يضبط حقيقتيها ، وجعل من اختلاف الحقيقتين ، سبباً لاختلاف المظهرين الاجتماعيين ، من حيث تتمثل الصورة الاجتماعية للأمة، في ما يصدر عنها في كل عصر ، من مدارك الحضارة والثقافة ، على ما اختلف ذلك قرباً وبعداً ، من حقيقة الدين ، ومن حقيقة المظهر المثالي الكامل ، الذي ينبغي أن يبرز فيه المجتمع ، الذي يتكون بهذا الدين .
فجعل شؤون السياسة ، والعمران ، والصناعة ، والعلم ، في الدولة الإسلامية ، تبعاً لشأن الدين . وجعل الحقيقة الأولى للدين ، التي هي العقيدة الفردية ، أصلاً وأساساً لذلك كله ، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة ، وركود ريح العمران ، في عصور الإسلام اللاحقة ، عن عصوره السابقة ، وانتقاص الصنائع ، وتلاشي ملكات العلوم ، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده ، جاعلاً ذلك كله راجعاً إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين ، التي هي أساس العمران الناشيء به ، والدولة القائمة عليه ، أعني العقيدة الدينية .
فرد ذلك كله إلى صورة تكون الفرد ، تكوناً إيمانياً ، يرتبط من جهة ، بالدين الإسلامي في عقيدته ، ويسري منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة ، من مظاهر عمرانية ، وصناعية ، وفكرية .

جبريل، عليه السلام ، الذي بيَّن فيه الرسول ﷺ مقام الإحسان ، فقال : **« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »**[١] .. وفي المسند : **«صلي صلاة مودع كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »** ، وحتى في العادات والمعاملات كلها ، فإن الإحسان ، مامور به المسلم : **« إن الله كتبَ الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتْلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليُحِد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته »**. [٢]

(ز) صحوة الأمة ، واستشعارها ، ودعوتها إلى ضرورة التوجه الكلي نحو الدين ، والالتزام به ، والحصول على القوة ، التي تحفظ كيان الأمة ، والعمل على استقلالية الأمة ، في كافة مجالات الحياة ، مما يعني بدء زوال ظاهرة القابلية للاستخراب (للاستعمار) ، التي بقيت ردحاً من الزمان عند المسلمين.

(حـ) أن الأمة بتوحدها ، بإيمانها ، وجهادها بامتلاك القوة ، والتقدم العلمي، تبلغ أوج الحضارة ، وتنتصر على قوى التخلف في داخلها ، وتواجه قوى الطغيان والاستكبار العالمي ، لتنتصر عليها إن شاء الله .

الخلاصة :

إن التحديات الحضارية ، هي الخطر الحقيقي ، الذي يواجهنا نحن المسلمين اليوم ، غير أن هذا الخطر كائناً ما بلغ ، قد ردنا إلى الإيمان ، وأحيا فينا آمال العودة ، حتى ولو كان بعضنا أمياً ، فيؤتيه الله علماً .. والإيمان بالله، هو أصل العلم .

ومهما كان ضعفنا ، وتفرقنا ، اليوم ، فإن الله يعيننا ، ويؤلف بيننا ، إذا استمسكنا بعروته الوثقى ، وعدنا إلى الإيمان العاصم ، فنملك بهذا العلم الإيماني، إمكانية أن نهدي العالمين إلى الصراط المستقيم . ثم إننا من أجل إقامة نهضة حضارية ، وتفوق ثقافي ، وتقدم علمي ، لنكون قوة المستقبل التي تحمي الحق ، وتدافع عنه، لابد من عمل دائب ، وجهاد في هذا السبيل ،وإقامة للدين ، بمعانيه الشاملة والكاملة ،من أنه اعتقاد ، وعمل ، وعبادة ، وأخلاق ، وآداب ، وسلوك، ومعاملات ، وقوانين مدنية ، وجنائية .. أو شعائر وشرائع ، وأسلمة لشؤون الحياة كلها ، في الفرد ، والمجتمع ، والدولة .

---

(١) رواه البخاري ، عن أبي هريرة ، دون ذكر جبريل عليه السلام ، انظر فتح الباري ، ح ٥٠ ، ١/١١٤ ، ومسلم ، ح ٨٠ ، ١/١٣٦ ، عن عمر بن الخطاب ، وفيه قصة جبريل عليه السلام .

(٢) رواه مسلم ، ٣ / ٥٤٨ ، كتاب الصيد والذبائح ، باب الأمر بإحسان الذبح ، ح ٥٧ .

دور الذكر والجهاد.. في صناعة المستقبل

هذه دراسة في جهاد أهل الذكر ، وبيان حالهم ، في ساحات الجهاد ، في سبيل الله، نشرح فيها معاني كلمة الذكر ، في لغة القرآن الكريم ، وصفات أهل الذكر ، ومراتب الجهاد في سبيل الله ، ومقام الجهاد في الدين ، مع تقديم نماذج من جهاد أهل الذكر، من لدن عهد النبوة ، والصحابة والتابعين لهم ، لتكون أنموذجاً للاقتداء ، حيث يقوم اليوم ، طوائف من أهل الذكر ، بأمر الدين ، والجهاد في سبيل الله ، يدورون مع الكتاب ، حيث دار ، ويهتدون بهدي السنة النبوية ، ويجددون أمر هذا الدين ، يحيون شعائره ، ويقيمون شرائعه، ويجمعون بين القرآن والسلطان ، ويؤاخون بين السيف والقلم ، وهم أهل البشرى، بشرنا الصادق المصدوق ﷺ فقال : «**لا يزال أهل الغرب ، ظاهرين على الحق ، حتى تقوم الساعة**» (١)، وهم أهل الحدة ، والشوكة ، والسلاح ، أي الجهاد في سبيل الله ، وهم أيضاً، امتداد المهاجرين والأنصار ، ممن ساحوا في الأقطار ، يرفعون لواء التوحيد ،وذلك إلى كونهم أظهر جهة في اتجاه الغرب ، وأقربها من جهة القبلة .

وهذه هي المعاني الجامعة لكلمة الغرب ، كما جاءت في هذا الحديث (٢) ، وأنها الطائفة المنصورة ، إن شاء الله تعالى ، تحقيقًا لوعد ربنا : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (الصافات : ١٧١ – ١٧٣) .

---

(١) رواه مسلم ، ك الإمارة ، باب : لا تزال طائفة .

(٢) انظر النهاية في غريب الحديث ، والأثر لابن الأثير ، ٣٥١/٣ ، ط عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، وشرح النووي على صحيح مسلم ، ٦٦/١٣ ، منشورات مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت ، وفتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، ٢٩٣/١٣ ، منشورات مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت .

معاني الذكر في لغة القرآن الكريم

قد جاءت معاني الذكر في القرآن الكريم ، على أوجه كثيرة ، يجمع بينها أنها تعد كلها من صفات أهل الذكر ، منها ما يعد صفة ملازمة لأهل الذكر ، الذاكرين الله كثيرًا :

(أ) فالذكر : بمعنى الوحي ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ (القمر : ٢٥) ، يعني الوحي .

(ب) والذكر : بمعنى القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ (الأنبياء : ٥٠) ، يعني القرآن .

(جـ) والذكر : بمعنى الحفظ ، كما في قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة : ٦٣) ، يعني احفظوا ما فيه .

(د) والذكر : بمعنى طاعة الله ، التي لا يكون بدونها أحدٌ ذاكرًا ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة : ١٥٢) .

(هـ) والذكر: أيضًا الشيء يجري على اللسان، كما في قوله تعالى :﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ (النساء : ١٠٣) ، وقوله ﷺ : **« ما يزال لسانك رطبًا من ذكر الله »**[١] .

(و) والذكر بالقلب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ (آل عمران : ١٣٥)، أي ذكروه في أنفسهم ، وعلموا أنه سائلهم عمًّا عملوا .

(ز) والذكر : بمعني التفكر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٤) .

(حـ) والذكر ، والذكرى: بمعنى التذكير: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات : ٥٥) .

---

(١) الترمذي ، ك الدعوات ، ٤ ، مسند أحمد ، ١٨٨/٤ ، ١٩٠ .

(ط) والذكر، والذكرى : نقيض النسيان: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ (يوسف : ٤٥) ، أي تذكر بعد نسيان .

(ي) والذكر : بمعني الصلوات الخمس ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (النور : ٣٧) ، يعني الصلوات الخمس .

(ك) والذكر : بمعني الدراسة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ ﴾ (الأعراف : ١٧١) ، معناه : وادرسوا ما فيه .

(ل) والذكر : الصيت ، والثناء ، والشرف ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ (ص: ١) .

(م) والذكر : بمعنى الخبر ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الكهف : ٨٣) ، يعني خبراً .

(ن) والذكر : بمعني البيان ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (الأعراف : ٦٣ و ٦٩) ، أي بيان من ربكم .

(س) والذكر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

(ع) الذكر : الصلاة ، والتسبيح ، والدعاء ، والشكر ، وتمجيد الله تعالى ، وتهليله ، والثناء على الله ، بجميع محامده [1] .

---

(١) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ذكر) .
الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، مادة (ذكر) ، ج ١١ ، تحقيق عبدالكريم الغرباوي ، ط الكويت ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن ، ط بغداد ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .
يحيى بن سلام : التصاريف : تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه ، تحقيق هند شلبي ، ط تونس، ١٩٨٠ .
الدامغاني أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد : إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، تحقيق عبدالعزيز سيد الأهل ، ط بيروت ، ١٩٧٠م .

(ص) وقد أحسن صنعاً، الحكيم الترمذي، حين ذكر في كتابه: (تحصيل نظائر القرآن)، أن من معاني الذكر: الجهاد. قال: «وإنما صار الذكر (الجهاد) في مكان آخر، لأنه إنما يجاهد عن لا إله إلا الله، ولإقامتها، وللذب عنها، فذلك الفعل هو ذكر» (١).

ويلزم أهل الذكر، ليكونوا من أهل الثناء، والشرف، والرفعة حقيقة، أن يكونوا أهل فكر، وعظة، واعتبار، وعمل صالح، كالصلاة، والجهاد، وذكر الله بالقلب، واللسان، وذكر الله بتلاوة القرآن، وحفظه، وتدبره، ومعرفة بيانه، وأخباره، وذكر الله بالدعاء، والتسبيح، والشكر، والثناء على الله تعالى.

هذا، وذكر الله واسع سعة معاني الدين، وشموله لشؤون الحياة كلها، كما نجد في الهدي النبوي، الأنموذج، والقدوة الحسنة. وقد كانت حياته ﷺ، كلها ذكرًا، إذ كان يذكر الله في جميع أحيانه.

وهكذا كان فقه الصحابة.. وهذه واحدة من الصحابيات الجليلات، كمثال على هذا الفقه: فعن أم الدرداء أنها قالت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥):

فإن صليت، فهو من ذكر الله.
وإن صمت، فهو من ذكر الله.
وكل خير تعمله، فهو من ذكر الله.
وكل شر تجتنبه، فهو من ذكر الله.
وأفضل الذكر، تسبيح الله (٢).

---

(١) الحكيم الترمذي: تحصيل نظائر القرآن، تحقيق حسني نصر زيدان، ط ١، مطبعة القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، ص ٦٤.

(٢) انظر الطبري في تفسيره، ٢٠/١٥٧.

صفات أهل الذكر

أهل الذكر هم المسبحون ، الحامدون ، التالون ، المصلون ، المقيمون لشعائر الله ، وشرائعه ، وهم المحبون لله تعالى ، والمحبون لرسول الله ﷺ ، والذين يحبون إخوانهم في الدين ، وهم المستجيبون لأمر ربهم ، بالإكثار من ذكره تعالى .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الأحزاب : ٤١ - ٤٢) ، وقد جاءت هذه الآية ، في سياق إثبات ختم النبوة والرسالة ، لخاتم الأنبياء والمرسلين:﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٤٠) .. وفي الذكر ، إشارة واضحة ، إلى أن الذكر صفة ملازمة لنبينا ﷺ ، وأنه جاء بالذكر .... ذاكراً ، ومذكراً .

وفيها من لطائف الإشارات ، أنها جاءت على رأس الأربعين آية من سوره الأحزاب ، المرافقة لسن النبوة ، عند نزول الوحي .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٣٥) .

وهذه الآية جاءت في سياق الأمر بذكر الله ، وتلاوة كتابه ، وإحسان الفقه في القرآن ، علمًا ، وعملاً ، مع إخلاص الإسلام ، والإيمان ، وصدق للدين ، والصبر ، والخشوع ، والإنفاق ، والتصدق ، والصيام ، والعفاف ، قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ

وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ (الأحزاب : ٣٤ ـ ٣٥) ، وقال تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾

(العنكبوت : ٤٥) ، أي ذكر الله لكم بالثواب ، والثناء عليكم ، أكبر من ذكركم له في عبادتكم ، وصلواتكم .. قال معناه ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو الدرداء ، وأبو قرة ، وسلمان ، والحسن ، وهو اختيار الطبري [1] .. وثواب ذكر الله ، هو أن يذكره الله تعالى ، كما في الحديث القدسي : «**من ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**» [2] .

والذكر النافع ، هو ما كان مع العلم ، وإقبال القلب ، وتفرغه إلا من الله ، وأهل الذكر ، قد باعوا لله أنفسهم ، وزكوا أنفاسهم في سبيل مرضاته ، فما يقعدهم عن الجهاد شيء .. كيف لا وهم المتحققون بالتوبة ، والعبادة الخالصة لله ، وهي العبادة الجامعة لأركان الإسلام ، وسهامه ، وشعائره ، وشرائعه ، بالتوحيد الخالص ، والصلاة الخاشعة ، والإحسان في إيتاء الزكاة ، وصيام رمضان والحج ، والجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والمحافظة على حدود الله تعالى ، والدعوة إليه جل جلاله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(التوبة : ١١١ـ١١٢) ، وقد ورد وصف المؤمنين من أهل الذكر ، في

---

(١) انظر الطبري في تفسيره ، ١٥٧/٢٠ .

(٢) البخاري ، كتاب التوحيد ، باب : ١٥ ، مسلم ، كتاب الذكر ، ٢ ، ١٨ .

سياق الجهاد ، في صدر سورة الأنفال التي تسمى أيضًا سورة الجهاد ، وسورة بدر: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال : ١ – ٤) . وذلك ليطهروا نفوسهم، عن الاشتغال بالاختلاف حول المغانم ، ولتتعلق هممهم بالفردوس الأعلى، وليتحققوا بالإيمان الكامل .

الجهاد وصدق الإيمان :

ثم إنه لا يكون صدق الإيمان بالله ورسوله ﷺ ، والاستقامة على دين الله ، وأمره ، إلا بالجهاد في سبيله تعالى، بالمال ، والنفس ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات : ١٥) .

جهاد النفس :

ولا يكون جهادنا في ساحات القتال ، إلا ونحن نجاهد أنفسنا جهادًا عظيمًا ، حتى نتخلى عن رغائب الدنيا ، وجواذبها الأرضية ، ومن لم يجاهد نفسه ، لم ينتصر عليها ، فيخرج مقاتلاً للعدو الخارجي : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٢١٦) ، وبجهاد النفس ، يصير ما تكرهه حبيبًا إليها ، حتى القتال ، ومبارزة العدو، وتعريض النفس للخطر ، وحينئذ فالمجاهدون لا يفرغون من غزوة، إلا وأعدوا أنفسهم لما بعدها، ولولا هذه الروح الدافعة ، والسر العظيم في الجهاد،

ما بلغوا في وجيز من الزمان مشارق الأرض ومغاربها . وفي بيان المقام العظيم لجهاد النفس ، يقول ﷺ : «**المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل**» (١) .

الجهـــاد : المعـــنى .. والمراتـــب

معـــنى الجهـــاد :

وتفسير الجهاد ، في لغة القرآن الكريم ، على ثلاثة وجوه :

١ – الجهـاد بالقـول ، وذلك كـمـا في قـوله تعـالى : ﴿ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان : ٥٢) .

٢ – القتال بالسلاح كما في قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء : ٩٥) .

٣ – الجهــاد يعـني العمل ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ (العنكبوت :٦)، يعني : ومن عمل الخير، فإنما يعمل لنفسه، وله نفع ذلك (٢) .

والجـهاد في سبيل الله باب واسع ، فـمنه جـهـاد النفس ، وجـهـاد العلم ، والحـجـة ، واللسان ، وجهاد المال ، والبذل ، والإنفاق ، وجهاد العدو بالقتال والمبارزة .

وقد حقق بعض العارفين القـول في الجـهـاد ، ومراتبـه ، على نحو ما يـرد موجزاً ، فيما يلي:

مـراتـــب الجهـــاد :

الجهاد على أربع مراتب :

المرتبة الأولى : جهاد النفس ، وهو أيضاً أربع مراتب :

أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى .

---

(١) الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، ٢ ، مسند أحمد ٦/ ٢٠ – ٢٢ .

(٢) انظر هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، ص : ٣١٩ .

ما بلغوا في وجيز من الزمان مشارق الأرض ومغاربها . وفي بيان المقام العظيم لجهاد النفس ، يقول ﷺ : **«المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل»** (١) .

الجهـاد : المعـنى .. والمراتـب

معـنى الجهـاد :

وتفسير الجهاد ، في لغة القرآن الكريم ، على ثلاثة وجوه :

١ – الجهـاد بالقـول ، وذلك كمـا في قـوله تعـالى : ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾ (الفرقان : ٥٢) .

٢ – القتال بالسلاح كما في قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء : ٩٥) .

٣ – الجهـاد يعـني العمل ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ ﴾ (العنكبوت : ٦) ، يعني : ومن عمل الخير ، فإنما يعمل لنفسه ، وله نفع ذلك (٢) .

والجهـاد في سبيل الله باب واسع ، فـمنه جـهاد النفس ، وجـهاد العلم ، والحـجة ، واللسان ، وجهاد المال ، والبذل ، والإنفاق ، وجهاد العدو بالقتال والمبارزة .

وقد حقق بعض العارفين القـول في الجهـاد ، ومراتبـه ، على نحو ما يـرد موجزاً ، فيما يلي :

مـراتـب الجهـاد :

الجهاد على أربع مراتب :

المرتبة الأولى : جهاد النفس ، وهو أيضاً أربع مراتب :

أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى .

---

(١) الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، ٢ ، مسند أحمد ٦/٢٠ – ٢٢ .

(٢) انظر هارون بن موسى : الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، ص : ٣١٩ .

الثـانية : على العمل به بعد علمه .

الثـالثة : على الدعوة إليه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله .

الرابعة : على الصبر على مشاق الدعوة ، ويتحمل ذلك كله لله .

فإذا استكمل هذه الأربع ، صار من الربانيين ، فإن السـلف مجمعون على أن العـالم لا يكون ربانيًا ، حتى يعرف الحق ، ويعمل به ، ويعلمه .

المرتبة الثانية : جهاد الشيطان ، وهو مرتبتان : إحداهما ؛ جهاده على دفع ما يلقي من الشبهات ، والثانية جهاده على دفع ما يلقي من الشهوات .

فالأولى بعدة اليقين ، والثانية بعدة الصبر ؛ قـال تعـالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة : ٢٤) .

المرتبة الثالثة : جهاد الكفار والمنافقين ، وهو أربع مراتب : بالقلب ، واللسان ، والمال والنفس .. وجهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان .

المرتبة الرابعة : جهاد أرباب الظلم ، والمنكرات ، والبدع ، وهو ثلاث مراتب : باليد إذا قدر ، فإن عجز انتقل إلى اللسان ، فإن عجز جاهد بقلبه [١] .

وقد كـانت حيـاة السلف الصالح ، قائمة على ذكر الله آناء الليل ، وأطراف النهـار ، تلاوة للقرآن ، مع التزام ورد فيه معلوم ، بحسب مقام كل واحد منهم ، مع التزام الجماعة ، جماعة المسلمين ، وجماعة الصلاة ، وقيام الليل ، وصيام التطوع ، والسعي في مصالح المسلمين ، وإيصال النفع ، والخير لهم ، مع الاستقامة على أمر الله ، والقيام بواجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في رفق ، وأناة ، وحلم ، حتى رضي الله عنهم ، ورضوا عنه ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس ؛ يوالي بعضهم بعضًا ، ويذكرون الله بلسان حالهم ، ومقالهم ، على نحو ما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : (اجلس بنا نؤمن ساعة) [٢] .

---

(١) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ٩/٣ ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٦ .

(٢) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان ، ١ .

وما أثر عن عمر رضي الله عنه ، أنه كان يقول ، وهو يأخذ بيد الرجل والرجلين ، من أصحابه : (قم بنا نزدد إيماناً) ، فيذكرون الله تعالى بعض الوقت .[1]

لقد كانوا حقًا رهبانًا في الليل ، فرسانًا في النهار ، وربما تقرحت بطون بعضهم ، من التزام أكل قدر محدود من التمر كل يوم ، كأهل الصفة الذين رحم حالهم حبيبهم رسول الله ﷺ ، الموصوف بالرأفة ، والرحمة ، حتى إنه لم يجد شيئًا يطعمهم غير شعير ولبن ، مع تطييب خاطرهم ، بأنه لا يجد في بيته غير هذا .[2]

وقد يسقط بعضهم من الإعـياء ، في طريقه إلى صـلاة الجماعة ، على قرب المكان ، أو يربط على بطنه الحجر من الجوع ، لكنه إذا نودي للجهاد ، كان أسرع إجابة للنداء ، ولربما قال بلسان حاله ، أو مقاله : ما أحسن الآن لو سمعت مناديًا ينادي : يا خيل الله اركبي[3] .

إن همهم الفردوس الأعلى .

وهذان مثلان لرجلين ، من هؤلاء الرجال ، فأحدهما وهو يصب ماء الوضوء للنبي ﷺ ، فيطلبه أن يسأل ما يتمنى ، فلا يكون جوابه إلا : (أسألك مرافقتك في الجنة) ، قال له عليه الصلاة والسلام : **«أو غير ذلك»** ؟ فأكد ما طلبه أولاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : **«فأعني على نفسك بكثرة السجود»**[4] .

---

(١) كنز العمال ، ٢/٢٤٠ ، ح ٣٩٢١ ، وعزاه إلى النسائي في الكبرى ، واللالكائي في السنة .

(٢) صحيح البخاري ، الفتح ، ١١/٢٨١ ، ح ٦٤٥٢ ، وانظر مسند أحمد ، ٤/١٩٨ .

(٣) الحديث أخرجه أبو الشيخ ، في الناسخ والمنسوخ ، والعسكري عن أنس قال : (فنادى منادي رسول الله : ياخيل الله اركبي) ، وأخرجه أيضًا الحاكم في المستدرك من قصة أويس ، وعنون أبو داود : (باب النداء عند النفير يا خيل الله اركبي) ، ولكنه لم يذكر في الحديث الذي ساقه ، هذا اللفظ ، الذي أورده المصنف .
انظر كتاب صفوة الصفوة ، لابن الجوزي ، ١/٢٠٨ ، أورده ضمن المختارات التي صنفها تحت عنوان : (ومن كلامه المتقن وأمثاله العجيبة صلى الله عليه وسلم) .
صفوة الصفوة تحقيق محمود فاخوري ، خرج أحاديثه د. محمد رواس قلعجي ، دار المعرفة ، ط ٤ .

(٤) أحمد ، ٤/٥٩ .

والمثل الثاني لعمير بن الحمام ، وقد بلغ به الشوق مداه لدار الخلد ، لما سمع النبي ﷺ يحض على القتال ، ويبشر الشهداء ، فما كان منه إلا أن سارع إلى مبتغاه ، وهو يلقي بتمرات كن معه قائلاً : (لئن أنا عشت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة)[١] .

النبي ﷺ أسوة المؤمنين في جميع أبواب البر :

وإن التأسي برسول الله ﷺ ، طريق نجاتنا ، ودليل محبتنا له ، وذلك على سعة أبواب الخير التي نتأسى فيها بالنبي ﷺ ، على قدر طاقتنا ، وهو سيد الذاكرين ، والشاكرين ، والحامدين ، والمصلين ، والصائمين ، والمنفقين ، وهو سيد قراء القرآن ، وهو قائد الغر المحجلين، وهو إمامنا في كل خير[٢]

الجهاد ذروة سنام الإسلام :

والجهاد ذروة سنام الإسلام ، وهو من أركان الدين .. والنبي ﷺ ، أسوة المؤمنين ، هو المعظم شأن الجهاد ، الواصف له بأنه ذروة سنام الإسلام[٣] .

والجهاد ملحق بأركان الإسلام الخمسة ، وقد عد النبي ﷺ أسهم الإسلام الثمانية : الخمسة المعروفة ، وأضاف إليها ثلاثة ، هي : الجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر[٤] .

النبي ﷺ أسوة الذاكرين والمجاهدين :

وقد جاء ذكر الأسوة في القرآن ، في ثلاثة مواضع ، في سورتي الأحزاب ، والممتحنة، المدنيتين ، كلها في سياق الولاء ، والبراء في الله تعالى ، والجهاد في سبيله .. ففي موضعي

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٨٧/٣ .

(٢) ابن القيم الجوزية ، عدة الصابرين .

(٣) الترمذي ، كتاب الإيمان ، ٨ ، ابن ماجه ، كتاب الفتن ، ١٢ ، أحمد ٢٣١/٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ .

(٤) انظر ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ، طبعة دار الفكر ، ص ٢٥ ، والحديث إسناده صحيح ، عن حذيفة موقوفًا ، وأما رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فضعيف .

سورة الممتحنة ، دعاء إلى التأسي بأبي الأنبياء إبراهيم عليه وعلى نبينا ، وعلى جميع المرسلين الصلاة والسلام ، وموضوع الأسوة هنا ، في الولاء في الله تعالى ، لأوليائه ، والبراءة من المشركين ، ومقاطعة الذين يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً .

قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾

(الممتحنة : ٤ – ٦) .

أما آية سورة الأحزاب ، فقد جاءت في سياق الجهاد ، تدعو للتأسي بسيد الذاكرين ، وقائد الغر المحجلين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾ (الأحزاب : ٢١ –٢٣) .

يقول ابن كثير في تفسيره : هذه الآية ، أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ ، في أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ، ومصابرته ، ومرابطته ، ومجاهداته ، ولهذا قال تعالى للذين تضجروا ، وتزلزلوا ، واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، أي : هلا

اقتديتم به، وتأسيتم بشمائله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾[1] .

وهذه الآية الأخيرة ، قرأها رسول الله ﷺ ، يوم أحد ، بين يدي جثمان المعلم الأول، ومقرئ القرآن بالمدينة ، الصحابي الشهيد مصعب بن عمير ، رضي الله عنه ، ثم قال : «**إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة**» .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن هذه الآيات ، نزلت في عمه أنس بن النضر رضي الله عنه : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ .... الآية[2] .

ومن الصحابة ، من أسعده الله ، وشرفه بالشهادة النبوية ، أنه ممن ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً .. فعن طلحة رضي الله عنه ، قال : لما رجع رسول الله ﷺ ، من أحد ، صعد المنبر، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وعزّى المسلمين بما أصابهم ، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر ، والذخر، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ﴾ ، فقام إليه رجل من المسلمين ، فقال : يا رسول الله ، من هؤلاء ؟ فأقبلتُ وعليٌّ ثوبان أخضران حضرميان فقال : «**أيها السائل هذا منهم**»[3] .

المجاهدون وملازمة الذكر :

وذكر الله ، يلازم المجاهدين في سبيل الله ، وهم يستغيثون الله ، ويدعونه ، ويتضرعون إليه ، في ساحات القتال ، ويفتقرون إليه تعالى ، ويخضعون له ، ومع إعدادهم العدة اللازمة ، فهم لا يعتمدون عليها ، بل يفوضون أمرهم إلى الله ، ويتوكلون عليه ، أو كما وصف صاحب البردة صحابة رسول الله ﷺ :

كأنهم في ظهور الخيلِ نبتُ رُبىً *** من شِدّة الحزم لا من شَدَّة الحُزُمِ

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٣/٤٧٤ .

(٢) أخرجه البخاري ، عن أنس ، وهكذا رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وأحمد .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، عن موسى بن طلحة .. انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، (٣/٤٧٦).

ولكنهم معتمدون على عناية الله :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة *** من الدروع وعن عال من الأطم

ودعوة هذا شانها ، وهؤلاء جنودها ، فإنها منصورة بإذن الله ، مهما كان أعداؤها :

ما حوربت قط إلا عاد من حرب *** أعدى الأعادي إليها ملقي السلم

وقد اقتدى بالنبي ﷺ ، رجال من الصحابة الكرام ، وتبعهم بإحسان رجال ممن جاء بعدهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحشر : ١٠) .

لقد كان ذكر الله حالة غالبة عليهم ، وجهاد النفس سمة تميزهم ، وساحات الجهاد، سياحة لهم . والمؤمنون مأمورون بالإكثار من ذكر الله تعالى .

ثم إنه لو كان الله تعالى ، مرخصًا لأحد في ترك الذكر ، لكان ذلك مع زكريا عليه السلام حين سأله أن يجعل له آية : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (آل عمران : ٤١) ، ولكان ذلك أيضًا مع المجاهدين ، وهم يقاتلون في ساحات الجهاد ، فقد أمروا بذكر الله كثيرًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأنفال : ٤٥) .

أهل الذكر وساحات الجهاد :

وأهل الذكر ، قلوبهم متعلقة بساحات الجهاد ، لأنها مظنة استجابة الدعاء ، ومدد الملائكة في الغزوات : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال : ٩) .. وقد بشرنا النبي ﷺ ، أن الدعاء يستجاب في ميدان القتال ، حيث قال ﷺ : **«ثنتان لا تردان - الدعاء عند النداء ، وعند**

البأس ، حين يلجم بعضهم بعضًا»[1] ، كما روى الشافعي في كتابه (الأم) ، بسند مرسل، عن النبي ﷺ قال : «اطلبوا استجابة الدعاء ، عند التقاء الجيوش ، وإقامة الصلاة ، ونزول الغيث»[2] .

وأهل الذكر، هم المرابطون على ثغور الإسلام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .

وعيون الخاشعين ، الذاكرين الله كثيراً ، مثل عيون المرابطين ، يحرسون ثغور الإسلام ، كتب الله لها النجاة : «عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[3] .

الجهاد من أركان الدعوة إلى الإسلام :

وأهل الذكر ، مجاهدون ، دعاة إلى الله . والجهاد من أركان الدعوة إلى الإسلام، وهو ذروة سنامه، وأقصر طريق إلى رضوان الله ، وأقربه ، فالجنة تحت ظلال السيوف ، ثم إنه لا سبيل لإعلاء كلمة الله تعالى، بدون الجهاد ، وإنه لحقًا أعظم العبادات، حتى إن المالكية يذكرون باب الجهاد، متصلاً بالعبادات، اعتباراً بنية المجاهد : «لتكون كلمة الله هي العليا»[4].

نمـاذج من مجـاهدي الصحـابة

لقد كان الصحابة ، من المهاجرين والأنصار ، على مراتبهم في الأولية ، والسبق ، والفضل، يتصدر التعريف بكل واحد منهم ، بعد ذكر إسلامه ، أنه شهد المشاهد ، والغزوات كلها ، مع رسول الله ﷺ ، أو يذكر في ترجمته مقدار ما شهد من هذه المشاهد ،

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب الدعاء عند اللقاء .
(٢) المجموع ، شرح المهذب ، ٩٦/٥ .
(٣) الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ١٢ .
(٤) انظر رسالة (المرشد إلى الجهاد) ، أحمد علي الإمام ، ص ٧ .

البأس ، حين يلجم بعضهم بعضًا»[1] ، كما روى الشافعي في كتابه (الأم) ، بسند مرسل، عن النبي ﷺ قال : «**اطلبوا استجابة الدعاء ، عند التقاء الجيوش ، وإقامة الصلاة، ونزول الغيث**» [2] .

وأهل الذكر، هم المرابطون على ثغور الإسلام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) .

وعيون الخاشعين ، الذاكرين الله كثيراً ، مثل عيون المرابطين ، يحرسون ثغور الإسلام ، كتب الله لها النجاة : «**عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله**» [3] .

الجهاد من أركان الدعوة إلى الإسلام :

وأهل الذكر ، مجاهدون ، دعاة إلى الله . والجهاد من أركان الدعوة إلى الإسلام، وهو ذروة سنامه، وأقصر طريق إلى رضوان الله ، وأقربه ، فالجنة تحت ظلال السيوف ، ثم إنه لا سبيل لإعلاء كلمة الله تعالى، بدون الجهاد ، وإنه لحقًا أعظم العبادات، حتى إن المالكية يذكرون باب الجهاد، متصلاً بالعبادات، اعتباراً بنية المجاهد : «لتكون كلمة الله هي العليا»[4].

نماذج من مجاهدي الصحابة

لقد كان الصحابة ، من المهاجرين والأنصار ، على مراتبهم في الأولية ، والسبق ، والفضل، يتصدر التعريف بكل واحد منهم ، بعد ذكر إسلامه ، أنه شهد المشاهد ، والغزوات كلها ، مع رسول الله ﷺ ، أو يذكر في ترجمته مقدار ما شهد من هذه المشاهد ،

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب الدعاء عند اللقاء .

(٢) المجموع ، شرح المهذب ، ٩٦/٥ .

(٣) الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ١٢ .

(٤) انظر رسالة (المرشد إلى الجهاد) ، أحمد علي الإمام ، ص ٧ .

وشارك في تلك الغزوات ، مع ذكر جمعه للقرآن ، أو ما حفظه منه ، وذكر عبادته ، وتهجده ، وإنفاقه ، وبذله .. وهكذا كانت سيرة الخلفاء الراشدين ، إلى تمام العشرة المبشرة، وقد زادوا فوق ذلك ، تحمل أعباء الخلافة ، والإمارة ، والقيادة [1] .

وحيثما نظرت في تراجم هؤلاء الرجال ، وجدتهم في المشهورين بالعلم ، والزهد ، والتعبد ، والجهاد ، ومن بينهم عدد وافر من الصحابيات العابدات ، اللائي اشتركن في جملة من الغزوات ، بما تيسر من مشاركة مناسبة ، كالسقي ، والتمريض ، والنقل ، والأعمال الإدارية ، مع المشاركة الفعلية في القتال أحيانًا [2] ، وقد شاركت جملة من أمهات المؤمنين في بعض هذه الغزوات ، بصحبة النبي ﷺ ، وفقًا لقسمهن ، وسهمهن ، في الخروج [3] .

وهذه نماذج يسيرة ، من هدي خير القرون ، من جيل الصحابة ، السابقين بالإحسان ، من المعروفين بالقراء والعلماء ، الذين كانوا من أهل التقوى ، والمغفرة ، والجهاد ، والبذل في سبيل الله ، والعبادة ، والتهجد ، والصوم ، وسلامة الصدر ، ولزوم الذكر :

١ - مصعب بن عمير .. المقرىء :

أول معلم يهاجر إلى المدينة ، داعية إلى الإسلام ، يمضي شهيداً يوم أحد ، وهو يتلو القرآن في الميدان :

لقد ظل مصعب بن عمير يعلّم القرآن ، ويدعو الناس للإسلام ، واستشهد يوم أحد، وهو يحمل الراية ، وجعل يقرأ القرآن في الميدان ، يثبت به المؤمنين ، وكان آخر ما قرأ :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ

---

(١) انظر على سبيل المثال ، في سيرة الخلفاء الراشدين ، وبقية العشرة المبشرة ، من كتاب الإمام ابن الجوزي، صفوة الصفوة ج ٢٤٢/١ - ٣٦٦ .

(٢) انظر ابن الجوزي في صفوة الصفوة ، ١٥/٢ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق .

﴿ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٤) .

٢- سالم مولى أبي حذيفة .. يحمل اللواء يوم اليمامة ، على درب مصعب بن عمير[١] :

كما اعتنق سالم مولى أبي حذيفة ، اللواء يوم اليمامة ، وجعل يدعو الناس للاجتماع والقتال : (يا أهل سوزة البقرة ، يا أهل سورة آل عمران) ، وأنكر على من ظن به أن الراية تسقط من يده فقال : (بئس حامل القرآن أنا إذًا) . وقطعت يداه ، والراية على صدره ، بين يديه ، وهو يقرأ بين يدي استشهاده ، تمامًا مثلما صنع مصعب بن عمير ، قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ .. ﴾ (آل عمران : ١٤٤)[٢] .

٣ - معاذ بن جبل .. أنموذج فريد، في حب الله ، ولقائه :

لقد حُبب لقاء الله إلى الصحابة ، وهم سادة الذاكرين ، إنهم كانوا يذكرون الله تعالى ذكرًا كثيرًا ، فزكت نفوسهم ، واشتاقوا للقاء الله ، إن كانوا في ميدان الجهاد ، فهم يرجون الشهادة ، وإلا فحسن الختام ، وهم في سبيل ذلك يلبون النداء ، فيخرجون عن المدينة ، التي يحبونها ، ويحتملون ألم فراق سيد الصحابة ، بل سيد الأنبياء والمرسلين ، وقائد الغر المحجلين ﷺ .

وإنه يمثل لنا هذا الأنموذج ، معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقد كان معلمًا ، داعية إلى الخير ، مجاهداً . فعن عاصم بن حميد ، عن معاذ بن جبل قال ، لما بعثه رسول الله ﷺ ، إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ، ومعاذ راكب ، ورسول الله ﷺ يمشي تحت

---

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ، ١/١٤٥ .
(٢) انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٦/٣٣٧ .

راحلته ، فلما فرغ قال : «**يا معاذ عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك تمر بمسجدي هذا ، وقبري**» ، فبكى معاذ خشعًا لفراق رسول الله ﷺ ، ثم التفت ، فاقبل بوجهه نحو المدينة ، فقال : «**إن أولى الناس بي ، المتقون ، من كانوا ، وحيث كانوا**» (١) .

وقد أعد معاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، نفسه للقاء الله ، بل إن أهله كانوا مثله ، فإنه لمّا أصاب ولديه الطاعون قبله ، استبشر معهما بلقاء الله ، قال لهما : كيف تجدانكما؟ قالا: يا أبانا ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة : ١٤٧) ، قال : وأنا ستجداني إن شاء الله من الصابرين (٢) .. ثم إن معاذ بن جبل استقبل الموت بحفاوة بالغة، وذلك في طاعون عمواس ، بناحية الأردن ، سنة ثمان عشرة من الهجرة ، وله من العمر حينئذٍ ثلاث وثلاثون سنة . ولما شعر بدنو الأجل ، هتف :

مرحبًا بالموت مرحبًا ، زائر مُغب ، حبيب جاء على فاقة ، اللهم إني قد كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك ، إنك لتعلم أني لم أكن أحب الدنيا ، وطول البقاء فيها ، لكري الأنهار، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب، عند حلق الذكر(٣) .

وقد خص الله تعالى معاذ بن جبل رضي الله عنه ، بجملة فضائل ، من السبق في الإسلام ، والبيعة ، والعلم ، والعمل ، والزهد ، والورع ، والكرم ، والجود ، والتعبد ، والاجتهاد . شهد بيعة العقبة ، وبدراً ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وأردفه وراءه، وبعثه إلى اليمن، بعد غزوة تبوك ، وشيعه ماشيًا في مخرجه ، وهو راكب .

---

(١) الحديث صحيح ، أخرجه الإمام أحمد، في المسند ، ٥/٢٣٥ ، وقال ابن حجر : في الإصابة في تمييز الصحابة، بعد أن ذكره في ترجمة معاذ : الحديث صحيح .

(٢) ابن الجوزي : صفوة الصفوة ، ١/٥٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ١/٥٠٢ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء ، ١/٤٤٣ .

وهو مع ذلك ، متواضع ، يقول إذا قام يتهجد من الليل ، يناجي ربه : اللَّهُمَّ قد نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت حي قيوم ، اللَّهم طلبي للجنة بطيء ، وهربي من النار ضعيف ، اللَّهم اجعل لي عندك هدى ، ترده إلى يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد [1] .

٤ - أبو طلحة الأنصاري .. رجل كألف :

أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود الأنصاري ، شهد العقبة مع السبعين ، وبدراً، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وكان من الرماة المذكورين ، يقي بصدره رسول الله ﷺ ، وكان قوي التأثير على العدو ، حتى قال ﷺ **«لصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة»**[2] ، وفي رواية أخرى : **«لصوت أبي طلحة أشد على المشركين من فئة»** .

وكان من أكثر الأنصار مالاً ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران : ٩٢) ، جاء إلى رسول الله ﷺ ، وأوقف أمواله إليه ، وجعلها صدقة في سبيل الله على الأقربين ، وبني عمه [3] وعن أنس ، أن أبا طلحة ، ما أفطر بعد رسول الله ﷺ ، إلا في مرض ، أو سفر ، حتى لقي الله . وعنه : أن أبا طلحة ، غزا البحر ، فمات، فلم يوجد له جزيرة يدفن فيها ، سبعة أيام ، فلم يتغير [4] .

٥ - عبد الله بن رواحة .. الفدائي المقدام والصوّام :

عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امريء القيس ، يكنى أبا محمد ، أحد النقباء الاثني عشر ، وشهد العقبة مع السبعين ، وبدراً ، وأحداً ، والخندق ، والحديبية ، وخيبر ، وعُمرة

---

(١) ابن الجوزي : صفوة الصفوة ، ج ٤٨٩/١ ، ٤٥٢ .
(٢) رواه الإمام أحمد ، انظر : ابن الجوزي ، صفوة الصفوة ، ج ٢٦١/٣
(٣) الحديث في صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، الباب ٤٦ ، الزكاة على الأقارب ، ومسلم في صحيحه ، في كتاب الزكاة ، باب : فضل النفقة على الأقربين .
(٤) ابن الجوزي : صفوة الصفوة ، ج ٤٧٧/١ - ٤٨٠ .

القضاء . واستخلفه رسول الله ﷺ ، على المدينة في غزوة بدر الموعد (بدر الآخرة) ، وبعثه في سرية في ثلاثين مجاهداً ، إلى أسير بن رزام اليهودي ، بخيبر ، فقتله ، وأرسله إلى خيبر خارصاً .

وعن أبي الدرداء قال : لقد رأيتنا مع النبي ﷺ ، في بعض أسفاره ، في اليوم الحار، الشديد الحر ، حتى إن الرجل ليضع يده على رأسه من شدة الحر ، وما في القوم صائم ، إلا رسول الله ﷺ ، وعبد الله بن رواحة (١) .

٦ - أبو دجانة .. يبايع على الموت :

أبو دجانة سماك بن خرشة ، شهد بدراً ، وأحداً ، وثبت مع رسول الله ﷺ ، يومئذٍ ، وبايعه على الموت ، وقتل بعد اليمامة شهيداً .

كان سليم الصدر ، يحفظ وقته ولسانه ، فلا يتكلم فيما لا يعنيه ، فعن زيد بن أسلم، قال : دُخل على أبي دجانة وهو مريض ، وكان وجهه يتهلل ، فقيل : ما لوجهك يتهلل؟ فقال : ما من عملي شيء أوثق عندي من اثنين ، أما أحدهما فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني ، وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً (٢) .

٧ - خُبَيْب بن عدي .. أول شهيد سنّ صلاة ركعتين بين يدي القتل:

وهذا خبيب بن عدي بن مالك ، شهد أحداً مع النبي ﷺ ، وكان فيمن بعثه مع بني لحيان ، فأسروه هو وزيد بن الدَّثنة ، فباعوهما من قريش ، فقتلوهما ، وصلبوهما بمكة، بالتنعيم . ولما خرجوا به من الحرم ، ليقتلوه في الحل ، قال لهم خبيب : دعوني أصلي

(١) البخاري ، كتاب الصوم ، ٣٥ ، مسلم ، كتاب الصيام ، حديث ١٠٨ ، ١٠٩ ، وانظر صفوة الصفوة، ٤٨١/١ .
(٢) ابن الجوزي ، في صفوة الصفوة ، ج ٤٨٥/١ - ٤٨٦ .

ركعتين ، فتركوه ، فركع ركعتين ، وقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي من جزع ، لزدت : (اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً) .

وقـال :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً *** على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ *** يبـارك على أوصـال شـلوٍ ممـزع

وكان خبيب ، هو الذي سن هذه الصلاة لكل مسلم ، ويستبشر بلقاء الله عز وجل، فيصلي بين يدي تقديمه للقتل ، رحمه الله ، وأحسن لقاءه [1] .

نماذج من مجاهدي التابعين لهم بإحسان

١ - صله بن أشيم العدوي .. شهيد من أهل الذكر والذاكرين :

وهذا نموذج لرجل من التابعين ، هو صلة بن أشيم العدوي ، من كبار التابعين ، من أهل البصرة ، وكان ذا فضل وورع ، وعبادة ، وزهد ، كان يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي الفراش إلا حبواً ، وله مناقب كثيرة جداً . وكان يكثر من صلاة الليل في الغزوات، التي يشارك فيها ، مقاتلاً مع الجيش ، وقال رجل لصله : ادع الله لي .. فقال : (رغبك الله فيما يبقى، وزهـدك فيمـا يفنـى ، ورزقك اليقين ، الذي لا يرجـى إلا إليـه ، ولا يعـوَّل في الدين إلا عليه) .

وكان صله في غزاة ، ومعه ابنه ، فقال : أي بني ، تقدم فقاتل ، حتى احتسبك .. فحمل فقاتل حتى قُتل ، ثم قاتل صله ، حتى قُتل .

(١) صفوة الصفوة ، ١/٦١٩-٦٢١ ، والذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١/٢٤٦ .

ركعتين ، فتركوه ، فركع ركعتين ، وقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي من جزع ، لزدت : (اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً) .

وقـال :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً *** على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ *** يبـارك على أوصـال شـلوٍ ممـزع

وكان خبيب ، هو الذي سن هذه الصلاة لكل مسلم ، ويستبشر بلقاء الله عز وجل، فيصلي بين يدي تقديمه لِلقتل ، رحمه الله ، وأحسن لقاءه [1] .

نماذج من مجاهدي التابعين لهم بإحسان

١ - صله بن أشيم العدوي .. شهيد من أهل الذكر والذاكرين :

وهذا نموذج لرجل من التابعين ، هو صلة بن أشيم العدوي ، من كبار التابعين ، من أهل البصرة ، وكان ذا فضل وورع ، وعبادة ، وزهد ، كان يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي الفراش إلا حبواً ، وله مناقب كثيرة جداً . وكان يكثر من صلاة الليل في الغزوات، التي يشارك فيها ، مقاتلاً مع الجيش ، وقال رجل لصله : ادع الله لي .. فقال : (رغبك الله فيما يبقى، وزهـدك فيمـا يفنـى ، ورزقك اليقين ، الذي لا يرجـى إلا إليـه ، ولا يعـوّل في الدين إلا عليه) .

وكان صله في غزاة ، ومعه ابنه ، فقال : أي بني ، تقدم فقاتل ، حتى احتسبك .. فحمل فقاتل حتى قُتل ، ثم قاتل صله ، حتى قُتل .

(١) صفوة الصفوة ، ٦١٩/١-٦٢١ ، والذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ٢٤٦/١ .

واجتمع النساء عند امرأته ، معاذة العدوية ، فقالت : إن كنتن جئتن لتهنيئنني ، فمرحبًا بِكُنَّ، وإن كنتن جئتن لتعزينني ، فارجعن [1] .

٢ – عبد الله بن المبارك .. فقيه محدث ، من أهل الذكر والجهاد :

وهذا عبد الله بن المبارك ، أحد أئمة المسلمين ، أدرك جماعة من التابعين ، وروى عن كبار الأئمة ، رجل جمع الله له بين العلم الغزير ، والعمل الوفير ، والإحسان الجزيل ، والجهاد المتصل ، فكلما سمع صيحة ، لبى النداء ، وهو مع ذلك كثير النفع لعباد الله ، بعلمه ، وماله، ويعتني في ذلك بأهل العلم ، ورفقة الحج ، ويجتهد في إدخال السرور على المسلمين.

وابن المبارك ، كثير الخشية ، والمراقبة لله عز وجل ، فإذا أدرك محل استجابة الدعاء، سأل الله أن ينجيه من ظمأ يوم القيامة .. وفي هذا المعنى ، يقول سويد بن سعيد :

رأيت عبد الله بن المبارك بمكة ، أتى زمزم ، فاستقى منها ، ثم استقبل الكعبة ، فقال : اللهم إنَّ ابن أبي الموالي ، حدثنا عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال : **«ماء زمزم لما شُرب له»**[2] ، وهذا أشربه لعطش القيامة . ثم شربه .

ثم إن أطيب الناس عيشاً ، وأسعدهم حالاً ، من كان عارفًا بالله ، وفي ذلك يقول ابن المبارك :

أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ، قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها . قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٩/١٧ – ١٨ ، تحقيق : د. أحمد أبو ملح وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
(٢) الحديث صحيح ، أخرجه ابن ماجه ، في المناسك ، الباب ٧٦ ، وأحمد في مسنده ، ٣/٣٥٧ .

وعن القاسم بن محمد ، قال : كنا نسافرُ مع ابن المبارك ، فكثيراً ما كان يخطر ببالي، فأقول في نفسي : بأي شيء فُضل هذا الرجل علينا ، حتى اشتهر في الناس ، هذه الشهرة ؟ لئن كان يصلي ، إنَّا لنصلي ، ولئن كان يصوم ، إنا لنصوم ، وإن كان يغزو، فإنَّا لنغزو ، وإن كان يحج ، إنا لنحُج !

قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ، ليلة نتعشى في بيت ، إذ طفيء السراج ، فقام بعضنا ، فأخذ السراج ، وخرج يستصبح ، فمكث هنيهة ، ثم جاء بالسراج ، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ، ولحيته قد ابتلت من الدموع . فقلت في نفسي : بهذه الخشية ، فُضل هذا الرجل علينا ، ولعله حين فقد السراج ، فصار إلى الظلمة ، ذكر القيامة .

ولقد كان عبد الله بن المبارك ، القدوة في الزهد ، والقيام ، والذكر .. كان كذلك الإمام المجاهد ، بلسانه ، وسنانه ، حتى أصبح مثلاً يحتذى ، وقدوة للمجاهدين ... وهو الذي يرسل لصاحبه وأخيه الفضيل بن عياض ، من ساحات الشهادة ، هذه الأبيات ، كما رواها الإمام الذهبي في السير ، قال : روى عبد الله بن محمد ، قاضي نصيبين ، ثنا محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة ، قال أملى عليَّ ابن المبارك سنة سبع وسبعين ومئة ، وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض ، من طرسوس :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب جيده بدُمُوعه ... فنُحورُنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا ... قولٌ صحيح صادق لا يكذب

لا يستوي وغبار خيل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يُكْذَب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم ، فقرأه ، وبكى ، ثم قال : صدق أبو عبدالرحمن ونصح[1] .

لقد ظل ابن المبارك طيلة حياته ، يحج عاماً ، ويغزو عاماً ، حتى توفي في (هيت) من نواحي العراق ، وهو منصرف من الغزو ، سنة إحدى وثمانين ومائة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وعن محمد بن فضيل بن عياض ، قال : رأيت عبد الله بن المبارك في المنام ، فقلت : أيُّ الأعمال وجدت أفضل ؟ قال : الأمر الذي كنت فيه . قلت : الرباط والجهاد ؟ قال : نعم . قلت : فأيُّ شيء صنع بك ربك ؟ قال : غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة ، وكلمتني امرأة من أهل الجنة ، أو امرأة من الحور العين[2] .

وكما كان عبد الله بن المبارك رحمه الله ، العالم الذي يذكرك الآخرة برؤيته ، كذلك هو بعد مماته .. فهذا أحد الصالحين ، يمرُّ على قبر عبدالله بن المبارك ، فيتذكر سيرته الزكية في العبادة ، وفي الجهاد ، فانشأ يقول :

مررت بقبر ابن المبارك غدوة ... فأوسعني وعظًا وليس بناطق

وقد كنت بالعلم الذي في جوانحي ... غنيًا وبالشيب الذي في مفارقي

ولكن أرى الذكرى تنبه عاقلاً ... إذا هي جاءت من رجال الحقائق[3]

(1) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ٨/٤١٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ونذير حمدان ، طبعة ثالثة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
والرهْج (بسكون الهاء وفتحها) : الغبار .
والسنابك : جمع سنبك ، طرف حافر الخيل ، وجانباه من قدام .
(2) انظر : ابن الجوزي : صفوة الصفوة ، ج ٤ ، ص ١٣٤/١٤٧ ، والذهبي ، في سير أعلام النبلاء، ٨/٣٧٨ .
(3) انظر الذهبي ، في سير أعلام النبلاء ، ج ٨/٤١٩ - ٤٢٠ .

٣ - إبراهيم بن أدهم .. الزاهد الأواه، يركب البحر غازيًا، في سبيل الله :

وهذا إبراهيم بن أدهم، ويكنّى أبا إسحاق، روى عن جماعة من التابعين. نشأ في بيت شرف، وعز، ومال، وانصرف عنه إلى العبادة، والزهد، وانشرح صدره بما آتاه الله من فضله، وما ذاقه من لذة العبودية لله، والافتقار إليه، حتى قال : لو علم الملوك، وأبناء الملوك، ما نحن فيه من النعيم، والسرور، لجالدونا عليه بالسيوف، أيام الحياة.

إن هذا النعيم، يدركه أهل الذكر والجهاد، ومراقبة المولى عز وجل، وهكذا كان إبراهيم بن أدهم، فعن محمد بن الحسين، قال : ما انتبهت من الليل، إلا أصبت إبراهيم بن أدهم يذكر الله، فأغتمّ، ثم أتعزى بهذه الآية : ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ (المائدة : ٥٤).

وعن عبد الملك بن سعد الدمشقي، قال : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : أعربنا الكلام فما نلحن، ولحنا في الأعمال فما نعربُ.

وكان مستجاب الدعوة، حتى إنه ركب البحر، غازيًا في سبيل الله، عصفت بهم ريح شديدة، فأشرفوا على الهلاك، فدعا ربه : (اللهم أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك)، فسكن البحر، وصار كأنه قدح زيت.

وهكذا ظل إبراهيم بن أدهم، بين الذكر والجهاد، حتى قال عشية موته :

أوتروا لي قوسي، فأوتروه، فقبض عليه، فمات، وهو قابض عليه، يريد الرمي على العدو[١].

وحسبنا ما قدمنا من سيرة هؤلاء العشرة، وقد أكثرنا من ذكر الصحابة، لأنهم النماذج العملية في حسن التاسي، والاقتداء، بهدي النبي ﷺ، ورضي الله عن الصحابة الكرام

---

(١) انظر : ابن الجوزي : صفوة الصفوة، ٤/١٥٢ - ١٥٨، وابن كثير، البداية والنهاية، ١٠/١٣٥ - ١٤٥.

الذين رضي الله عنهم، ورضوا عنه : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

وجزى الله خيراً من اتبعهم بإحسان : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر : ١٠) .

وكلهم يتسابق في التحقق بصفات الرجال المؤمنين، الصادقين، المجاهدين، الثابتين على الحق : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب : ٢٣) .

الحركات الإسلامية المعاصرة .. تحاول الجمع بين الذكر والجهاد :

وهكذا كانت حركات الجهاد، والتحرر من الاستعمار، في بلادنا العربية، والإسلامية، فقد ظلت ساحات الجهاد، مجالاً لسياحة أهل الذكر، في أرجاء العالم الإسلامي .. وقد لا نحتاج إلى التفصيل، فكتائب الجهاد الإسلامية، لا يمكن أن تغمر أو تطمس، في السودان، والجزائر، وفلسطين، وسائر بلاد المسلمين .

وساحات الجهاد القائمة اليوم في عالمنا الإسلامي، لجنودها، في كل ركن أذان، وإقامة، وصلاة، وقيام ليل، وتهجد، وصيام، وتلاوة جماعية للقرآن، والتزام للذكر كثيراً، حتى أضاءت وجوه الذاكرين، فهي ناضرة بذكر الله، متعلقة بالفراديس العلى، وتتصل الأنوار من قبور شهدائها، بالسماء، ويفوح المسك من دم الشهداء، ويعظم الاحتمال والصبر، عند جرحى العمليات، ويكثر الذكر والتسبيح، من الممسكين بالزناد، في خط النار، وكلهم يتسابقون حول غايتهم في صدق ووفاء :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب : ٢٣) .

وأهل الذكر يجتهدون ، حتى تنشرح صدورهم ، وتطمئن قلوبهم بذكر الله : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ (الرعد : ٢٨-٢٩) .

وأهل الذكر ، في جهاد متصل الحلقات ، في صلاة ، وركوع ، وسجود ، وفعل الخير ، وعبادة لله ، وطاعة مع جهاد للعدو ، وامتثال لجميع ما أمر الله به ، وانتهاء عن كل ما نهى الله عنه ، وجهاد في الطاعة ، وردٌ النفس عن الهوى ، وجهاد في ردٍّ وساوس الشيطان ، ومدافعة لأهل الظلم والكفر [1] .

وذلك كله امتثالاً لأمر الله جل جلاله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ (الحج : ٧٧ - ٧٨) .

وقد يبلغون درجة الحبور ، بذكر الله ، حتى يعبر بعضهم عن هذه الحالة ، فيقول : **«إن في الدنيا جنة ، من لم يدخلها ، لا يدخل جنة الآخرة»** [2] .

وإنها لمجاهدة متصلة ، وتزكية للنفس ، لبلوغ درجة الإحسان في العبادة :

«أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [3] .

وصدق الله العظيم ، القائل في محكم تنزيله : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت : ٦٩) .

---

(١) انظر تفسير القرطبي لخواتيم سورة الحج ، ج ١٢ ، ص ٩٩ .

(٢) ابن قيم الجوزية : الوابل الصيب من الكلم الطيب ، ص ٤٤ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : سؤال جبريل .

القنوت .. دراسة موضوعية في ضوء الكتاب والسنة

ولا ريب في أن مستقبل الإسلام ، يصنعه ، أهل الذكر والجهاد .. ومن حيث هم أهل ذكر ، فإنهم أهل قنوت ، وطاعة ، واتصال بالله ، ولجوء إليه .. فالقنوت ديدنهم .. والوقوف على معالم القنوت ، والأحكام المتعلقة به ، أمر يحتاجه صُنَّاع مستقبل الإسلام ، في مواجهة التحديات ، التي لا يغنيهم فيها إعداد العدة الحربية، بل لا بد من العدة الإيمانية، والقوة الروحية ، والطاقات المعنوية ، ولهذا فإنهم يلتزمون القنوت ، وخاصة قنوت النوازل ، في مواجهة الحرب ، والحصار ، والمقاطعة ، والكيد ، واستبداد قوى الطغيان والاستكبار .

ومن ثمّ ، هذه دراسة في القنوت ، تشرح معناه في لغة القرآن الكريم، وتفسر الآيات التي جاء فيها ذكر القنوت ، مع بيان مشروعية قنوت النوازل ، وضرورته في عصرنا هذا ، وتبين آداب القنوت ، وأحكامه ، ومذاهب الفقهاء في وقته ، ومحله ، وما يجزىء من القنوت ، وألفاظه ، وشرح غريبه ، وسعة الهدي النبوي في ذلك .

وأهم شيء في القنوت ، أن يتحقق من يدعو ، بالمعاني الجامعة لكلمة القنوت ، من الاشتغال بذكر الله ، والخشوع في الصلاة ، والقيام ، وأن يدعوه سبحانه وتعالى ، مقرين له بالعبودية ، مخلصين له الدين : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (البينة : ٥) ، وحقًا : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة : ٢٧) ، ثم إنه : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (الحج : ٣٧) ، والمؤمنون يعتمدون في أعمالهم كلها ، على عناية الله ، ويتوكلون عليه وحده : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (الملك : ٢٩) .

ونحن مندوبون إلى سؤال الله تعالى ، ودعائه ، مفتقرين إليه ، منكسرين له ، حتى نكون أقرب للإجابة ، ونيل المطلوب ، كما وجهنا نبينا ﷺ : «**إنما تنصرون ، وترزقون بضعفائكم ، بدعائهم ، وصلاتهم ، وإخلاصهم**» [1] .

والله تعالى نسأله أن يجعلنا من عباده القانتين .

دواعي الكتابة عن القنوت :

وهي كثيرة ، علمية ، وعملية ، على نحو ما يلي :

١ ـ دواعٍ علمية : لبسط العلم ، ونشر سننه ، وآدابه ، وذلك لما يلي :

(أ) خفاء فقه القنوت .

(ب) تعدد الآراء الفقهية ، وتباين مواقف العلماء .

(جـ) التنازع حول مسألة القنوت .

(د) غفلة الأمة عن القنوت .

٢ ـ دواعٍ عملية : نواجهها في حياتنا المعاصر ، مع واقع المسلمين ، اليوم ، ومن ذلك :

(أ) الهجمة الشرسة من الكفار على المسلمين ، بمختلف الأشكال ، والأنواع ، والصور .

(ب) ظلم بعض حكام المسلمين ، للانفصام الحادث في مواقفهم ، وأحكامهم ، بين السلطان والقرآن ، وبين السيف ، والقلم ، مع التبعية المخزية للكفار ، وموالاة غير المؤمنين.

(جـ) غفلة عامة المسلمين ، عن هذا الواقع المرير ، وإنه لمن النوازل حقًا ، عدم اعتبار المسلمين لذلك ، وعدم انتباههم إلى أن ما حل بالمسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ، يستدعي قراءة قنوت النوازل .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ، والنسائي في كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف .

(د) حالة الضيق والتمزق ، الذي قد يُصيب بعض من نذر نفسه ، أن يكون مصلحًا ، فيواجه مكر الليل والنهار ، وليس له إلا أن يخلص في دعائه ، والتجائه إلى ربه .

(هـ) دعوة المسلمين كافة ، للإكثار من القنوت ، والتوسع فيه ، وعدم التعرض لمن يقنت، لأن الأمر في فقه الدين ، واسع .

(و) أهمية القنوت في تزكية النفوس ، وإعلاء القيم الروحية ، وتوثيق صلة العباد بربهم، والاهتمام بأمر المسلمين ، وتنمية العلاقات الأخوية ، والاجتماعية .

لأجل هذه الدواعي مجتمعة ، كان هذا الفصل ، ولنتقرب بذلك كله إلى ربنا جل جلاله ، وهو قريب ممن دعاه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٦) .

ونشرع في بيان المقصود ، والله المستعان :

أولاً : معاني القنوت في اللغة

قنت * القنوت :

يرد القنوت في لسان العرب ، على المعاني التالية :

١ – الإمساك عن الكلام ، والسكوت .

٢ – الدعاء والتسبيح .

٣ – الصلاة .

٤ – الدعاء في الصلاة .

٥ – الخشوع والإقرار بالعبودية .

٦ – القيام .

٧ – إطالة القيام .

٨ – القيام بالطاعة ، التي ليس معها معصية .

فيصرف في كل واحد من هذه المعاني ، إلى ما يحتمله اللفظ في سياقه ، من آية ، أو حديث ، أو عبارة .

(أ) قال ابن سيده ، فيما نقله عنه ابن منظور ، في كتابه : «لسان العرب» : القنوت الطاعة، هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ﴾ (الأحزاب:٣٥)، ثم سمى القيام في الصلاة قنوتاً ، ومنه قنوت الوتر .. والقانت : المطيع .

القانت: الذاكر لله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ (الزمر : ٩) .

وقيل : القانت : العابد .

والقانت في قوله عز وجل : ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ (التحريم : ١٢) ، أي من العابدين .

والمشهور في اللغة ، أن القنوت الدعاء . وحقيقة القانت أنه القائم بأمر الله ، فالداعي إذا كان قائماً ، خص بأن يقال له: قانت ، لأنه ذاكر لله تعالى ، وهو قائم على رجليه .. فحقيقة القنوت : العبادة ، والدعاء لله عز وجل ، في حال القيام ، ويجوز أن يقع في سائر الطاعة ، لأنه إن لم يكن قياماً بالرجلين ، فهو قيام بالشيء بالنية .

قال ابن سيده : والقانت القائم بجميع أمر الله تعالى (١) .

(ب) وجاء في مفردات الراغب الأصفهاني ، في تفسير معنى القنوت ، أنه :

لزوم الطاعة مع الخضوع ، وفسر بكل واحد منهما في قوله :

١ - ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ (البقرة:٢٣٨)، وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ (البقرة : ١١٦) ، (الروم : ٢٦) ، قيل : خاضعون ، وقيل : طائعون .

٢ - وقيل : ساكتون ، ولم يعن به كل السكوت ، وإنما عنى به ما قاله عليه الصلاة

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (قنت)

والسلام : «إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الآدميين ، إنما هي قرآن وتسبيح»، وعلى هذا قيل : أي الصلاة أفضل ؟ فقال : «طول القنوت» ، أي الاشتغال بالعبادة ، ورفض كل ما سواه . وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ (النحل : ١٢٠) ، ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (التحريم : ١٢) ، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ (الزمر : ٩) ، ﴿ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ (آل عمران : ٤٣) ، ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (الأحزاب : ٣١) ، ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ (الأحزاب: ٣٥) ، ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ ﴾ (النساء : ٣٤)[1] .

(جـ) وفي زاد المعاد [2]: أن القنوت يطلق على القيام ، والسكوت ، ودوام العبادة ، والدعاء ، والتسبيح ، والخشوع ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ (الروم: ٢٦) ، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (الزمر : ٩) .

وقال تعالى : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (التحريم : ١٢)، وقال ﷺ : «أفضل الصلاة طول القنوت» [3]، وقال زيد بن أرقم : (لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣٨) ، أمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام)[4]، وقد نظم الشيخ الحافظ زين الدين العراقي ، معاني القنوت ، على ما يلي: [5] .

ولفظ القنوت أعدُدْ معانيه تجد	مزيداً على عَشْرِ معاني مَرْضيَّة
دعاءٌ ، خشوعٌ ، والعبادةُ طاعةٌ	إقامتُها إقرارُهُ بالعبودية
سكوتٌ ، صلاةٌ ، والقيامُ ، وطولُه	كذاك دوامُ الطاعةِ الرابح القنية

---

(١) الراغب الأصفهاني ، في مفردات ألفاظ القرآن ، ٦٨٤ - ٦٨٥

(٢) زاد المعاد ، ج ١ / ٢٧٦ - ٢٨٧ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) البخاري ، العمل في الصلاة ، باب : ما ينهى من الكلام في الصلاة ، وفي كتاب التفسير ، سورة البقرة .. مسلم، ٥٣٩ ، من كتاب المساجد .

(٥) فتح الباري ، ج ٢ / ٤٩١

ثانيًا : معاني القنوت في القرآن الكريم

لقد جاء ذكر القنوت ، في القرآن الكريم ، في ثمان سور ، في اثني عشر موضعًا ، ثلاثة مواضع منهن مكية ، في النحل ، والروم ، والزمر ، وبقيتهن مدنيات ، في سور: البقرة، وآل عمران ، والنساء ، والتحريم ، والأحزاب .

تدور معاني القنوت في هذه المواضع ، على الطاعة ، والاستجابة ، والاستكانة ، والخضوع، والخشوع ، والإقرار بالعبودية، ثم تأتي بمعنى الطاعة عامة ، والطاعة لله عز وجل، ولرسوله ﷺ ، والطاعة في سكون ، والطاعة في خشوع ، والخشوع في الصلاة ، وطول الركوع في الصلاة .

وعليه ، فالقانت هو الخاشع ، المطيع لله ورسوله ، العابد ، الراكع ، المستكين له ، الخاضع لأمره ، الخاشع في صلاته ، الذي يطيل في صلاته ، وركوعه .

والقنوت مرتبة عالية ، لأنه يُذْكَرُ بعد الإسلام ، والإيمان ، ولهذا فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها ، وهو الإيمان ، ثم القنوت ناشيء عنهما .

وهذا بيان تفصيلي ، للمواضع التي جاء فيها لفظ القنوت ، مع تفسير موجز لمعنى القنوت ، في كل موضع ، مع تصنيف الآيات موضوعيًا :

الكون كله قانت لله :

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (البقرة:١١٦) ، ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ (الروم : ٢٦) .

ومعنى ﴿**قانتون**﴾ في الموضعين : أي مقرون بالعبودية ، مطيعون ، خاشعون لله خاضعون .

القنوت صفة الأنبياء :

كما جاء في ذلك في وصف إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ (النحل : ١٢٠) ، وقانتاً هنا ، تعني : الخاشع ، المطيع .

فضل القانتين وأهل القيام والتهجد :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ (الزمر : ٩) .

وكلمة قانت هنا ، تعني : الخشوع في الصلاة ، والتهجد .

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣٨) .

الأمر بالقنوت خطابًا لمريم عليها السلام :

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (آل عمران : ٤٣) .

والقنوت هنا ، بمعنى : طول الركوع في الصلاة ، امتثالاً لأمر الله تعالى .

وفي خطاب القرآن لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن :

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٣١) .

أي : تطع الله ، ورسوله ، وتستجيب .

ثم جاء ذكر القنوت ، على أنه صفة ملازمة ، للمؤمنين ، والمؤمنات :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ (الأحزاب : ٣٥).

أي : المطيعين ، والمطيعات، في سكون .

﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (آل عمران : ١٧) ، أي : الطائعين ، الخاضعين.

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ (النساء : ٣٤) ، أي : مطيعات لأزواجهن .

﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ ﴾ (التحريم : ٥) ، مطيعات .

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (التحريم : ١٢) ، أي : من المطيعات .

ثالثًا : المعنى الاصطلاحي للقنوت

وقد ذهب ابن حجر العسقلاني إلى أن « القنوت يطلق على معان ، والمراد به هنا الدعاء في الصلاة ، في محل مخصوص من القيام »(١) .

ومع أن المراد بالقنوت هنا ، هو الدعاء في الصلاة ، فإن هذا المعنى ، يجمع المعاني الأخرى المرادة من القنوت ، لأنه دعاء ، في قيام ، في صلاة ، لا كلام فيها ، إلا ذكر الله ، في طاعة لله ، وعبادة خالصة ، خاشعة ، وإقرار بالعبودية .

رابعًا : مشروعية القنوت ، وخاصة قنوت النوازل ، وضرورته في عصرنا هذا

والقنوت سنة نبوية ، وخاصة عند النوازل الكثيرة ، التي تحل بالأمة المسلمة ، وهي تواجه الحرب ، والحصار ، والمقاطعة ، والكيد ، واستبداد قوى الطغيان ، والاستكبار ، من

(١) العسقلاني ، فتح الباري ، ج ٢ / ٤٩١ .

أعداء الله الظاهرين ، والمستترين ، ولا بد من بيان المقصود من النوازل ، التي يشرع عندها القنوت .

النوازل في حياة المسلمين :

ومن يتأمل اليوم في حال المسلمين ، ويهتم بأمرهم ، ويتابع أخبارهم ، ويسعى مع العاملين لإقامة الدين ، يجد من النوازل ما يدعو المسلمين لدعاء القنوت ، وهذا بيان ذلك :

(أ) حال المسلمين :

١ - أغلبية مغلوبة ، وأكثريات مقهورة .. وأقليات مهضومة .

٢ - العرب والمسلمون ، مختلفون فيما بينهم ، وبعضهم تبع للأجنبي ، تمامًا كما كان الغساسنة والمناذرة .. أو كما كان في اليرموك ، يقاتل الروم المسلمين ، بعدد مساوٍ لهم من العرب تبعًا ..

٣ - بيت المقدس في أيدي اليهود ، وأهل فلسطين مشردون ، حرموا الأمن ، حتى إنهم لَيُقَتَّلُون في مساجدهم .

٤ - المسلمون مستضعفون حيثما كانوا .. وقد اجتمعت كلمة الكفر على حربهم ، واستلاب خيراتهم ، وتداعت عليهم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، مخافة أن تعود دولة الإسلام ، وتنتشر دعوته في العالمين ، وتسود حضارته ، وتزدهر على ضفاف النيل ، والرافدين ، والبحر الأحمر ، والبحر الأبيض ، والبحر الأسود ، والقرن الأفريقي ، وقلب أفريقيا ، فضلاً عن أوروبا ، وأمريكا .

والمسلمون في البوسنة والهرسك ، أُستبيحت نساؤهم ، وشرد أطفالهم ، وقتلوا تقتيلاً، على مرأى ومسمع من دول العالم . بل تآمرت دول الغرب ، المدعين المسيحية ، حتى تتم تصفيتهم جسديًا وعرقيًا ، واستولى أعداء من الصرب والكروات ، على معظم أراضيهم ، ومنعهم مجلس الأمن الدولي ، بقرار ظالم ، من التسلح ، ثم منع المسلمون من مساعدتهم ،

وأُتيحت الفرصة لأعدائهم الصرب والكروات ، للقضاء عليهم نهائيًا ، حتى لا تقوم للإسلام قائمة في قلب أوروبا : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف : ٨) .

ثم كانت كارثة الشيشان ، التي مكر فيها أعداء الله الروس بالمسلمين الشيشان ، وسكت الغرب ، وتآمرت جمعياته ، المنسوبة للعفو ، وحقوق الإنسان ، وتواطأوا جميعًا، ومكروا مكرًا كبارًا، في محاولة منهم لتدمير تلك القوة الإسلامية ، فأخلوا الطريق للروس ، ليقوموا بتنفيذ خططهم في تدمير المباني والمعاني ، وليس بالمسلمين اليوم ، حيلة لنصرة إخوانهم ، بل قد حيل بينهم وبين إخوانهم ، بشتى العوائق ، ومكر الليل والنهار . وما للمسلمين والحالة هذه ، إلا أن يضرعوا إلى الله ، قانتين في صلواتهم ، ومناجاتهم لربهم ، أسوة بنبينا ﷺ .

والقنوت سبيلنا ، لنصرة إخواننا المستضعفين ، نصرهم الله ، وأعلى لواءهم ، وقهر أعداءهم .

٥ ـ المسلمون ممنوعون عن إقامة دينهم ، والقيام بمقتضيات توحيد الله ، والاتساق مع أنفسهم ، في إقامة شعائر الله ، وشرائعه :

(أ) في النظم التربوية ، والتعليمية ، والثقافية ، والإعلامية ، تبعاً وتقليداً للغرب ، وتراثه الوثني ، والمادي .

(ب) وشرع الله معطل ، في المعاملات المالية .. فالربا المحرم ، تقوم عليه مؤسسات ، والغش ، والغرر ، والبيوع الفاسدة ، تسود المعاملات المعاصرة .

(جـ) والقوانين الجنائية ، مستمدة من القوانين الوضعية ، ذوات الأصول المادية، والمجوسية ، والوثنية .

(د) وحدود الله معطلة .. ورغم مطالب المسلمين ، فإن مؤسساتهم التشريعية مقهورة ، بالعلمانية ، والتدخلات الخارجية ، حتى لا يتميز المسلمون في قوانينهم .

وليشوهوا صورة النظام الإسلامي ، ويشوشوا عليه ، يفترون على الله الكذب ، ويقولون على الله ما لا يعلمون ، ويصفون الشريعة العادلة بما هي منه براء .

(ب) أهل الكفر مع المسلمين :

١ - الكفار في تطاول ، واستكبار ، واستبداد ، على خلق الله ، واستضعاف ، واستصغار ، واستذلال للمسلمين ..

٢ - جيوش الكفار ، تعيث في الأرض الفساد ..

٣ - وصنائعهم ، وجيوبهم ، مؤتمرة ، تحارب بالسلاح جنود الرحمن ..

٤ - ومن خلع ربقة الكفر عن عنقه ، وطرح قوانينه ، ونظمه ، وعاد إلى الله ، متوكلاً عليه ، دارت عليه دوائر البغي ، ومكروا عليه مكراً كباراً ، وزوروا عليه ، وافتروا الكذب ، مستخدمين سيطرتهم على المؤسسات الدولية ، والسياسية ، والأمنية ، والمالية ، ومتخذين ستائر الرحمة ، والإغاثة ، والعدل ، وحقوق الإنسان ، لفرض الحصار الظالم ، والمقاطعة الجائرة .

إنّ الظلم ظلمات يوم القيامة ، وعلى المفترين الظلمة ، خزي ، وندامة .. ودعوة المظلوم ، ليس بينها وبين الله حجاب .

وعلى دعاة الحق ، أن يوجهوا عداءهم ، وبغضهم، إلى هؤلاء الأعداء ، ثم إن على الدعاة إلى الله ، أن يكونوا مخلصين لله ، في القنوت ، والدعاء ، أن يتولاهم بالتأييد ، والتمكين لدينه ، وينصرهم على عدوهم .

خامساً : أحكام القنوت

١ – مشروعية القنوت :

القنوت ، سنة مشروعة عن رسول الله ﷺ ، وقد ذهب مالك إلى أن القنوت في صلاة الصبح ، مستحب ، بينما ذهب الشافعي إلى أنه سُنة[١] ، وقد أثبت الإمام البخاري ، سنية القنوت ، ومشروعيته في الصلاة ، حين بَوَّب له في كتاب الوتر ، من صحيحه ، قال : (باب القنوت ، قبل الركوع وبعده) ، وقد علق على ذلك صاحب : «فتح الباري في شرح صحيح الإمام البخاري» ، فقال : «أثبت بهذه الترجمة – أي عنوان الباب – مشروعية القنوت ، إشارة إلى الرد على من روي عنه أنه بدعة ، كابن عمر .. وفي الموطأ عنه ، أنه كان لا يقنت في شيء من الصلوات ، ووجه الرد عليه ، ثبوته من فعل النبي ﷺ ، فهو مرتفع عن درجة المباح»[٢] .

٢ – وقت القنوت :

(أ) صلاة الصبح ، وهو مذهب مالك ، والشافعي[٣] للحديث الصحيح فيه ، عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ ، قنت شهراً يدعو عليهم ، ثم ترك ، فأما في الصبح ، فلم يزل يقنت حتى فارق الدنيا) ، وهو حديث صحيح ، رواه جماعة من الحفاظ، وصححوه[٤] .

---

(١) النووي ، الأذكار ، ص ٥٧.

(٢) العسقلاني ، فتح الباري ، ج ٢ / ٢٩٠ .

(٣) النووي ، الأذكار ، وأيضاً المجموع .

(٤) قال النووي : وممن نص على صحته، الحافظ أبو عبد الله محمد بن علي البلخي ، والحاكم أبو عبد الله ، في مواضع من كتبه ، والبيهقي ، ورواه الدارقطني ، من طرق بأسانيد صحيحة . انظر النووي في المجموع، ٣/٥٠٤ – ٥٠٥ ، رواه الحاكم أبو عبدالله ، في كتاب الأربعين ، وقال : حديث صحيح ، انظر الأذكار للنووي ، ص ٥٧ .

وقد احتج الشافعي على أن الصلاة الوسطى ، الصبح ، من حيث قرانها بالقنوت ، في قوله تعالى : ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة : ٢٣٨).

(ب) وذهب أبو حنيفة ، وأحمد ، إلى أن وقت القنوت ، هو الوتر ، في جميع السنة[١] ، وقد نسب ابن قدامه هذا القول ، لابن مسعود ، وإبراهيم ، وإسحاق ، وأصحاب الرأي ، وأنه رواية عن الحسن[٢] .. وفي رواية عن أحمد ، أن وقته الوتر ، في النصف الأخير من رمضان ، قاله ابن قدامه . وعن أحمد رواية أخرى ، أنه لا يقنت إلا في النصف الأخير من رمضان ، وروي ذلك عن علي ، وأُبي ، وبه قال ابن سيرين ، وسعيد بن أبي الحسن ، والزهري ، ويحيى بن ثابت ، ومالك ، والشافعي ، واختاره أبو بكر الأثرم ، لما روي عن الحسن : (أن عمر جمع الناس على أُبي بن كعب ، فكان يصلي لهم عشرين ركعة، ولا يقنت إلى في النصف الثاني)[٣] .

وعن ابن عمر : (أنه لا يقنت ، إلا في النصف الأخير من رمضان) . وعنه : لا يقنت في صلاة بحال[٤] .

٣ - مذاهب العلماء في القنوت في الصلوات الخمس :

(أ) في الصلوات الخمس ، إن نزل بالمسلمين نازلة (وهو قول للشافعي)[٥] .

(ب) في الصلوات الخمس مطلقاً ، كما قال قوم[٦] .

(جـ) عدم القنوت مطلقاً ، في غير صلاة الصبح[٧] .

---

(١) ابن قدامة ، المغني ، ج ٢ / ١٥١ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) انظر سنن أبي داود ، ٢/٦٦ (١٤٢٩) .
(٤) المجموع ، ٣/٥٠٤ .
(٥) ابن رشد ، بداية المجتهد ، ١/١٣٢ .
(٦) المصدر السابق .
(٧) المصدر السابق .

والصحيح الذي قام عليه الدليل ، من هدي النبوة ، مشروعية قنوت النوازل ، في الصلوات الخمس ، ويكون الدعاء فيها جهراً ، بعد الرفع من الركوع[1] .

ويدل على القنوت ، عند النوازل ، في الصلوات الفرائض كلها ، حديث ابن عباس ، قال : (قنت الرسول ﷺ ، شهراً متتابعاً في الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والصبح، في دبر كل صلاة ، إذا قال : سمع الله لمن حمده ، من الركعة الأخيرة : يدعو عليهم ، على حي من بني سُلَيْم ، وعلى رِعْلٍ ، وذكوان ، وعُصيَّة ، ويُؤَمن من خلفه)[2] .

٤ - القنوت في شهر رمضان :

(أ) يستحب القنوت ، في النصف الأخير من شهر رمضان ، وقيل في النصف الأول منه ، في الركعة الأخيرة من الوتر[3] ، وهو مذهب الشافعية .

(ب) أو في جميع رمضان ، على قول الشافعية .. ونسبه الإمام النووي، إلى الإمام مالك[4] .

٥ - محل القنوت في صلاة الصبح :

(أ) قبل الركوع ، في الركعة الأخيرة ، وهذا مذهب مالك ، وقد ذكر الشيخ أبو الحسن، صاحب : كفاية الطالب الرباني ، شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، أن ظاهر كلام ابن أبي زيد القيرواني – أن القنوت – بعد الركوع أفضل ، ونسب هذا القول إلى حبيب ، وأنَّ المشهور أنَّ القنوت ، قبل الركوع أفضل ، لكونه أصح ، وأضاف الشيخ علي

---

(١) نيل الأوطار ، ٢٩٢/٢ .

(٢) رواه أبو داود ، وأحمد وزاد : أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام ، فقتلوهم، قال عكرمة : كان هذا مفتاح القنوت. انظر فقه السنة ، ١٩٧/١٠ .

(٣) الأذكار ، ص ٥٧ ، والمجموع ، ٢٤/٤ .

(٤) انظر المجموع ، شرح المهذب ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

الصعيدي ، صاحب حاشية العدوي ، أنه مع كونه أصح قبل الركوع ، فلما فيه من الرفق بالمسبوق ، ولأنه الذي استقر عليه عمر رضي الله عنه ، بحضور الصحابة (١) .

وروى محمد بن نصر ، من طريق أخرى ، عن حميد ، عن أنس : (أول من فعل القنوت، قبل الركوع ، أي دائماً ، عثمان ، لكي يدرك الناس الركعة) .. وفي صحيح البخاري بلفظ : (سأل رجل أنساً ، عن القنوت ، بعد الركوع ، أو عند الفراغ من القراءة ؟ قال : لا ، بل عند الفراغ من القراءة)(٢) .

(ب) بعد الرفع من الركوع ، وهو مذهب الشافعي . (٣)

وتحقيق المقال ، في هذا الموضع ، أن الأمر ، واسع في كل القنوت ، قبل الركوع ، أم بعده ، ويدل على ذلك ، حديث ابن ماجه ، عن أنس ، أنه سئل عن القنوت ، فقال : (قبل الركوع ، وبعده)(٤) .. قال ابن حجر العسقلاني : «إسناده قوي» - ومجموع ما جاء عن أنس بن مالك ، في ذلك، يدل على أن القنوت ، للحاجة ، بعد الركوع ، لا خلاف فيه عنه في ذلك، وأما لغير الحاجة ، فالصحيح ، أنه قبل الركوع . وقد اختلف عمل الصحابة ، في ذلك ، والظاهر ، أنه من الاختلاف المباح (٥) .

---

(١) وانظر أيضاً : الثمر الداني ، شرح رسالة أبي زيد القيرواني ، جمع الأستاذ ، وتحقيق الشيخ صالح عبد السميع الآبي الأزهري ، ط دار الفكر ، ص ٩٩ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجزية / ٨ .

(٣) الأذكار ، ص ٥٧ .

(٤) ونص الحديث في سنن ابن ماجه (١١٧٢) ، كما يلي : حدثنا نصر بن علي ، قال : حدثنا سهل بن يوسف ، قال: حدثنا حميد ، عن أنس ، قال : سئل عن القنوت في صلاة الصبح ، قال : كنّا نقنت قبل الركوع وبعده . وفي الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات . انظر (١١٧) باب ما جاء في القنوت قبل الركوع ، وبعده ، سنن ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٢١٤ ، تحقيق الأعظمي .

والحديث التالي في سنن ابن ماجه ، وهو رقم (١١٧٣) : حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا عبدالوهاب ، قال : حدثنا أيوب ، عن محمد ، قال : سئل أنس بن مالك ، عن القنوت ، فقال : (قنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الركوع) .

(٥) فتح الباري ، ج ٢ / ٤٩١ .

٦ – محل القنوت في الوتر :

في موضع القنوت في الوتر ، أوجه :

(أ) أنه قبل الركوع ، أي بعد القراءة ، وقبل التكبير .

(ب) الصحيح المشهور ، أنه بعد الركوع ، ونص عليه الإمام الشافعي .

(جـ) يتخير بينهما[١] .

وذهب بعض الفقهاء ، إلى أنه لم يحفظ عنه ﷺ ، أنه قنت في الوتر ، إلا في حديث ابن ماجه ، عن أُبيّ بن كعب ، أن رسول الله ﷺ ، كان يوتر ، ويقنت قبل الركوع[٢] .

٧ – محل القنوت في النوازل :

بعد الرفع من الركوع جهراً[٣] .

وفي بيان الحكمة ، من جعل القنوت في النوازل ، بعد الرفع من الركوع جهراً ، يقول ابن حجر العسقلاني :

وظهر لي ، أن الحكمة في جعل قنوت النازلة ، في الاعتدال ، دون السجود ، مع أن السجود مظنة الإجابة ، كما ثبت : «**أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد**»، وثبوت الأمر بالدعاء فيه : أن المطلوب من قنوت النازلة ، أن يشارك المأموم الإمام ، في الدعاء ، ولو بالتأمين ، ومن ثم ، اتفقوا على أنه يجهر به ، خلاف القنوت ، في الصبح ، فاختلف في محله ، وفي الجهر به[٤] .

---

(١) النووي ، المجموع شرح المهذب ، ج ٤ ، ص ١٥ .

(٢) ونصه في سنن ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٢١٥ ، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي ، عن أبي بن كعب: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوتر، فيقنت قبل الركوع).. انظر أيضاً : سنن أبي داود، الحديث رقم ١٤٢٨ – ١٤٢٩ .

(٣) فتح الباري ، ج ٢/٤٩١ .

(٤) المصدر نفسه .

سادسًا : ألفاظ القنوت

اختلف الأئمة فيما يقنت به :

(أ) فاستحب مالك القنوت بـ : (**اللهم إنا نستعينك ، ونستغفرك ، ونستهديك ، ونتوب إليك ، ونخنع لك ، ونخلع ونترك من يكفرك . اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ، ونسجد ، وإليك نسعى ، ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخاف عذابك ، إن عذابك الجد بالكافرين ملحق**) .

(ب) وقال الشافعي ، وإسحق ، بل يقنت بـ : (**اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وقنا شر ما قضيت ، إنك تقضي ولا يقضى عليك ، تباركت ربنا ، وتعاليت**)(١) ، وهذا يرويه الحسن بن علي ، من طرق ثابتة ، أن النبي عليه الصلاة والسلام، علّمه هذا الدعاء ، يقنت به في الصلاة (٢) .

(جـ) قال النووي : فالاختيار ، أن يقول فيه ما رويناه ، في الحديث الصحيح : (**اللهم إهدنا فيمن هديت ...**) ، قال أصحابنا : وإن قنت بما جاء ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان حسنًا ، وهو أنه قنت في الصبح ، بعد الركوع ، فقال : (**اللهم إنا نستعينك ، ونستغفرك ...**)(٣) .

(د) وقال قوم : ليس في القنوت شيء ، موقوت ، لأنه دعاء ، وأهم ما يراعى فيه ، الإخلاص في الدعاء (٤) .

---

(١) أخرجه أبو داود ، في سننه ، كتاب ، الوتر / ٥ ، والترمذي ، كتاب الوتر / ١٠ ، والنسائي في كتاب قيام الليل، باب : الدعاء في الوتر ، حديث ١٧٤٥ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، ولا نعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم في القنوت ، شيئًا أحسن من هذا .

(٢) النووي ، الأذكار ، ٥٧ - ٥٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ابن رشد : بداية المجتهد ، ١٣٣/١

حكم الجمع بين أدعية القنوت :

ويجوز الجمع بين هذه الأدعية ، الواردة في القنوت ، وغيرها ، مع اختيار جوامع الدعاء، والإخلاص ، ومراعاة الاعتدال في الدعاء ، ومناسبته ، للمقام ، وحال المصلين .

وقال النووي: ويجوز ، بل يستحب ، مع النشاط ، الجمع بين أدعية القنوت [1] .

ما يجزىء من القنوت :

والدعاء في القنوت ، واسع ، غير مقيد بنص معين ، من أدعية القنوت الواردة ، بل كل دعاء من أدعية القرآن ، أو السنة ، أو مطلق الدعاء ، واف بالمطلوب .

من أدعية القنوت :

وقد تعددت صيغ القنوت ، في السنة النبوية ، ومن ذلك :

١ - الدعاء الأول :

(اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت) ، رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .. ولا نعرف عن النبي ﷺ ، في القنوت شيئًا ، أحسن من هذا .

وفي رواية ذكرها البيهقي ، أن محمد بن الحنفية – وهو ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه – قال : إن هذا الدعاء ، هو الدعاء الذي كان أبي يدعو به ، في صلاة الفجر ، في قنوته .

قال النووي[2] : ويستحب أن يقول ، عقب هذا الدعاء : (اللهم صل على محمد

---

(١) النووي ، الأذكار ، ص ٥٨ .

(٢) النووي ، الأذكار ، ص ٥٨ .

وعلى آل محمد وسلم) .. فقد جاءت رواية النسائي، في هذا الحديث، بإسناد حسن: (وصلى الله على النبي)[1].

٢ - الدعاء الثاني:

(اللهم، إنا نستعينك، ونستغفرك، ولا نكفرك، ونؤمن بك، ونخلع، ونترك من يفجرك، اللهم، إياك نعبد، ولك نصلي، ونسجد، وإليك نسعى، ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق. اللهم، عذب الكفرة[2]، الذين يصدون عن سبيلك، ويكذبون رسلك، ويقاتلون أولياءك. اللهم، اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، وأصلح ذات بينهم، وألف بين قلوبهم، واجعل في قلوبهم الإيمان، والحكمة، وثبتهم على ملة رسول الله ﷺ، وأوزعهم أن يوفوا بعهدك، الذي عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوك، وعدوهم، إله الحق، واجعلنا منهم)[3].

٣ - الدعاء الثالث: دعاء قنوت النوازل:

وهذا أنموذج لما كان يدعو به النبي ﷺ، في قنوت النوازل، يدعو فيها على أعدائه

---

(١) سنن النسائي، كتاب قيام الليل، باب: الدعاء في الوتر، حديث ١٧٤٦.

(٢) نص الرواية عن عمر: (اللهم عذب كفرة أهل الكتاب)، واخترنا الإطلاق في الدعاء، وهو اختيار الإمام النووي، قال في «المجموع»، ٤٩٨/٥. وقوله: (اللهم عذب كفرة أهل الكتاب)، إنما اقتصر على أهل الكتاب، لأنهم كانوا يقاتلون المسلمين في ذلك العصر، وأما الآن، فالمختار أن يقال: (عذب الكفرة)، ليعم أهل الكتاب، وغيرهم من الكفار، فإن الحاجة إلى الدعاء على غيرهم أكثر، والله أعلم.

(٣) المصدر نفسه، (المجموع، شرح المهذب، للإمام النووي)، ج ٣، ص ٨ ٤٩، وغريب ألفاظ الحديث، هي: نستعينك: نطلب منك الإعانة على طاعتك .. نستغفرك: نطلب منك المغفرة، وهي الستر عن الذنوب، فلا تؤاخذنا بها .. نخلع: أي نترك .. تخنع، نخضع ونذل، ونخلع الأركان كلها، لوحدانيته .. نسعى: إلى الجمعة، والجماعة، والحج، والطاعات .. يفجر: أي يلحد في صفاتك .. نحفد: أي نسارع .. الجد: الحق .. ملحِق: بكسر الحاء على المشهور، ويقال بفتحها. ذكره ابن قتيبة وغيره .. ذات بينهم: أمورهم ومواصلتهم .. الحكمة: هي كل ما منع من القبيح .. أوزعهم: ألهمهم.. واجعلنا منهم: أي ممن هذه صفته.

الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقاتلون أولياءه ، أو يدعو للمستضعفين من المؤمنين ، مع الدعاء على الكفار :

١ - عن ابن عمر ، رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ ، إذا رفع رأسه من الركوع، في الركعة الآخرة من الفجر ، يقول : (**اللهم ، العن فلانًا وفلانًا** ، بعدما يقول : **سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد**) فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٢٨) [١] . وفي الحديث ، دليل مشروعية الجهر بالقنوت .

٢ - عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ، كان إذا أراد أن يدعو على أحد، أو أن يدعو لأحد ، قنت بعد الركوع ، فربما قال ، إذا قال : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد «**اللهم انج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف**» ، قال يجهر بذلك ويقول في صلاة الفجر : «**اللهم العن فلانًا وفلانًا**» ، حيين من أحياء العرب ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (آل عمران : ١٢٨)[٢] .

وفيه نصّ الراوي على أن النبي ﷺ ، قد جهر . ودلالة ذلك واضحة ، في أنه لا يجوز أن يكون القنوت سبابًا ، أو لعنًا ، وخاصة إذا كان مع المخالفين في الرأي ، من أهل القبلة . ولا شك ، أن ذلك خلاف هدي كتاب ربنا تعالى ، وسنة نبينا ﷺ .

(١) البخاري في صحيحه ، كتاب المغازي / ٢١ ، وكتاب التفسير ، سورة ٣ ، ٩ .. والنسائي ، كتاب التطبيق ، ٣١ .. وأحمد ، في المسند ٩٣/٢ ، ١٤٧ ، ٢٥٥ .

(٢) البخاري ، في صحيحه ، كتاب الأذان ، ١٢٨ ، كتاب الاستسقاء ، ٩٨ ، ومسلم ، كتاب المساجد، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، وأحمد ، في المسند ، ٢٢٩/٢ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ ، ٢٩٦ ، وانظر الأذكار، للنووي ، ص ٥٨ - ٥٩ .

٤ - الدعــاء الرابع : نموذج من جـوامع الدعــاء ، في قنوت النوازل ، ليختار منها ، ما يوافق الحال ، والنـشاط .

* اللهم ، إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أُحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

* اللهم إنك عفو ، تحب العفو ، فاعف عنا .

* اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن ، ونعوذ بك من الجبن والبخل ، ونعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال .

* اللهم اجعل عملنا كله صالحًا ، واجعله لوجهك خالصًا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً .

* اللهم ارزقنا الإخلاص في العمل ، والتوفيق لما ترضى ، والقبول عندك .

* اللهم إنك عفو كريم ، تحب العفو ، فاعف عنا .

* اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، وألّف بين قلوبهم ، وأصلح ذات بينهم ، وانصرهم على عدوك وعدوهم .

* اللهم العن الكفرة ، الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، ويقاتلون أولياءك .

* اللهم خالف بين كلمتهم ، وزلزل أقدامهم ، وأنزل بهم بأسك ، الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

* ونجِّ اللهم المستضعفين من المسلمين ، وانصر المجاهدين ، في مشارق الأرض ومغاربها .

* اللهم احفظنا ، وانصرنا ، ودعوتنا ، وأمتنا .. ومكّن دينك الذي ارتضيت ، وأيد اللهم جنودنا ، وثبت أقدامهم ، وسدد رميتهم ، واشرح صدورهم ، واذهب غيظ قلوبهم ، وانصرهم نصرك المؤزر المبين ، على عدوك وعدوهم ، واكفنا شرأعدائنا ، من الساعين بالفتنة، والباغين للبرآء العيب ، والمحادِّين الله ، ورسوله ، والمؤمنين.

* اللهم اكفنا شرهم بما شئت ، وكيفما شئت ، إنك على ما تشاء قدير .

* اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، أهزمهم ، وانصرنا عليهم.

* اللهم أغننا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك ، وارفع عنا الغلاء ، والوباء ، وما لا يكشفه عنَّا غيرك .

* اللهم بارك لنا في زرعنا ، وضرعنا ، وأرضنا ، واجعل سائر بلادنا سخاءً ، رخاءً، وأمانًا ، وسلامًا ، وارحم أمة محمد ﷺ عامة ، وارحم أمتنا رحمة من لدنك خاصة ، وقها شر الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، واهد اللهم ولاة أمورنا إلى ما فيه خير العباد والبلاد، واهدهم إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، وأعنهم في دينهم ، ودنياهم ، وآخرتهم، وقهم شر من حولهم ، وما حولهم ، وارزقهم بطانة الخير ، التي تأمرهم بالمعروف ، وتحضهم عليه ، وجنبهم بطانة السوء ، وانشر اللهم في بلادنا لواء العدل والإحسان ، وألف بين قلوب عبادك يا كريم.

سابعاً : آداب وأحكام

١ - صيغة دعاء القنوت :

(أ) يستحب أن يدعو الإمام بصيغة الجماعة .

(ب) ويكره أن يخص نفسه بالدعاء ، لما في سنن أبي داود ، والترمذي ، عن ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : **(لا يؤم عبد قومًا ، فيخص نفسه بدعوة دونهم ، فإن فعل فقد خانهم)**[١] .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، ٤٣ ، والترمذي ، كتاب الصلاة ، ١٤٨ ، وابن ماجه ، كتاب الإقامة ٣١ ، ومسند أحمد ، ٥/٢٥٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، وانظر النووي ، الأذكار ، ص ٥٩ .

٢ – رفع اليدين في دعاء القنوت :

يستحب رفع اليدين في دعاء القنوت [١] ، لما صح عن أنس ، رضي الله عنه ، في قصة القرّاء ، الذين قُتلوا رضي الله تعالى عنهم ، قال : (لقد رأيت رسول الله ﷺ ، كلما صلى الغداة يرفع يديه ، يدعو عليهم ، يعني على الذين قتلوهم) ، قال البيهقي : ولأن عدداً من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، رفعوا أيديهم في القنوت . ثم روي عن أبي رافع، قال : (صليت خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقنت بعد الركوع ، ورفع يديه، وجهر بالدعاء) .

وفي مسح الوجه باليدين ، قولان ، ونسب النووي إلى البيهقي ، أن الصحيح عدم المسح ، لأنه لم يحفظ فيه شيء عن أحد من السلف ، وإن كان يروى عن بعضهم في الدعاء خارج الصلاة ، فأما في الصلاة فهو عمل لم يثبت فيه خبر ، ولا أثر ، ولا قياس [٢] .

٣ – تأمين المأمومين :

ويستحب للمأموم أن يؤمن على الدعاء ، لما روى ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : (قنت رسول الله ﷺ ، وكان يؤمن من خلفه) ، ويستحب له أن يشاركه في الثناء ، لأنه لا يصح التأمين على ذلك ، فكانت المشاركة أولى [٣] .

٤ – القنوت بين الإجهار والإسرار :

(أ) قال الشافعية : إن كان المصلي منفرداً ، أسر به ، وهكذا ، إن كان مأموماً ، ولم يجهر الإمام ، قنت المأموم سراً ، كسائر الدعوات ، فإنه يوافق فيها الإمام سراً .

---

(١) المجموع ، ٣/٥٠٠ .
(٢) المجموع ، ٣/٥٠٠ – ٥٠١ .
(٣) المجموع ، ٣/٤٩٣ .

(ب) وإن كان إمامًا ، جهر ، على المذهب الصحيح المختار ، الذي ذهب إليه الأكثرون .

(جـ) وقيل : يسر ، كسائر الدعوات في الصلاة .

(د) إن جهر الإمام بالقنوت ، فإن كان المأموم يسمعه ، أمن على دعائه ، وشاركه في الثناء في آخره ، وإن كان لا يسمعه قنت سراً .

(هـ) في غير صلاة الصبح ، إذا قنت ، فالمغرب ، والعشاء كالصبح .

(و) والجهر بالقنوت في جميع الصلوات ، مسنود بسنة صحيحة ، ففي صحيح البخاري في باب تفسير قول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ (آل عمران:١٢٨) ، عن أبي هريرة : (أن النبي ﷺ ، جهر بالقنوت في قنوت النازلة) .

٥ - القنوت بين الترك والاستمرار :

ولا يعني ما ورد من تركه ﷺ للقنوت ، أكثر من ترك الدعاء ، واللعن على الكفار ، في قنوت النوازل ، بعد ما نزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ .

ويدل على ذلك ما صح عن النبي ﷺ ، مما أخرجه الإمام البخاري عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ ، قنت في صلاة العتمة شهراً يقول في قنوته :

«اللهم انج الوليد بن الوليد»

«اللهم انج سلمة بن هشام»

«اللهم انج عياش بن ربيعة»

«اللهم انج المستضعفين من المؤمنين»

«اللهم اشدد وطأتك على مضر »

«اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف» .

قال أبو هريرة : وأصبح ذات يوم ، فلم يدع لهم ، فذكرت ذلك له ، فقال : **«أو ما تراهم قد قدموا»**(١) .

يقول الإمام النووي ، في تأييد هذا المذهب : أما الجواب عن حديث أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما ، في قوله : « ثم تركه » ، فالمراد ترك الدعاء على أولئك الكفار ، ولعنتهم فقط، لا ترك جميع القنوت ، أو ترك القنوت في غير الصبح .. وهذا التأويل متعين ، لأن حديث أنس ، في قوله: (لم يزل يقنت في الصبح حتى فارق الدنيا) ، صحيح صريح ، يجب الجمع بينهما . هذا الذي ذكرناه متعين للجمع ، وقد روى البيهقي ، بإسناده، عن عبدالرحمن بن مهدي الإمام ، أنه قال : إنما ترك اللعن ، ويوضح هذا التأويل ، رواية أبي هريرة السابقة ، وهي قوله : (ثم ترك الدعاء لهم) .

والجواب عن حديث سعد بن طارق ، أن رواية الذين أثبتوا القنوت ، روي عنهم زيادة علم، وهم أكثر ، فوجب تقديمهم ...(٢) .

٦ - رأي المنكرين استمرار القنوت، والتزامه في صلاة الصبح :

والمنكرون للقنوت في صلاة الصبح ، على سبيل الالتزام المستمر ، يذكرون أنه كان قنوت النوازل ، أو يؤولونه بمعنى من معاني القنوت ، وهو هنا ، طول القيام بعد الركوع ، ولم يكن طول القيام ، مجرد سكوت ، بل كان فيه الدعاء والثناء . والمراد بالدعاء هنا ، مطلق الدعاء ، لا دعاء القنوت المحفوظ . بل كان فيه الثناء على الله تعالى ، وتمجيده ، والدعاء .. وقد انتصر لهذا الرأي ، ابن قيم الجوزية ، وتبعه الشوكاني ، فأيده في عدم الاستمرار في قنوت الصبح ، وأنه مختص بالنوازل في الصلوات كلها ، دون تخصيص.(٣)

---

(١) البخاري .

(٢) انظر النووي ، المجموع شرح المهذب ، ج ٣ ، ص ٥٠٥ .

(٣) انظر ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .
نيل الأوطار ، ج ٢ / ٣٩٥ - ٣٩٦ .

٧ - الإنصاف والاعتدال في التزام القنوت في صلاة الصبح :

ومع أن ابن القيم قد وقف مع المنكرين استمرار القنوت ، والتزامه في صلاة الصبح ، لكنه وقف موقف الاعتدال ، والإنصاف ، من مخالفيه في الرأي ، حين لخص الهدي النبوي في القنوت فقال : (١)

والإنصاف الذي يرتضيه العالم المنصف ، أنه ﷺ جهر ، وأسر ، وقنت ، وترك ، وكان إسراره أكثر من جهره . وتركه القنوت أكثر من فعله ، فإنه إنما قنت عند النوازل ، للدعاء لقوم ، والدعاء على آخرين ، ثم تركه لما قدم من دعا لهم ، وتخلصوا من الأسر ، وأسلم من دعا عليهم ، وجاءوا تائبين ، فكان قنوته لعارض ، فلما زال ترك القنوت ، ولم يختص بالفجر ، بل كان يقنت في صلاة الفجر والمغرب ، ذكره البخاري في صحيحه عن أنس (٢) .

ثم خلص في بيان الهدي النبوي في القنوت ، حيث قال :

وكان هديه ، القنوت في النوازل خاصة ، وتركه عند عدمها ، ولم يكن يخصه بالفجر، بل كان أكثر قنوته فيها ، لأجل ما شرع فيها من التطويل ، ولاتصالها بصلاة الليل ، وقربها من السحر وساعة الإجابة ، وللتنزل الإلهي ، ولأنها الصلاة المشهودة ، التي شهدها الله وملائكته ، أو ملائكة الليل والنهار (٣) .

٨ - سعة الهدي النبوي في القنوت ، فعلاً وتركًا :

الأمر في القنوت ، واسع أيضًا ، التزامًا له في صلاة الفجر ، أو الوتر ، أو عند النوازل ، كما سبق بيان ذلك في الأدلة ، مع عرضنا لأقوال الفقهاء ، والمجتهدين ، وقد أحسن صاحب

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ١ / ٢٧٢ ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، وعبدالقادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط أولى ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

(٢) البخاري ، كتاب الأذان ، ١٢٦ ، وكتاب الوتر ، ٧ ، ومسلم ، كتاب المساجد ، ٣٠٥ ، وأبو داود ، كتاب الوتر ، ١٠، والترمذي ، كتاب الصلاة ، ١٧٧ .

(٣) زاد المعاد ، ج ٢٧٣/١ .

(زاد المعاد في هدي خير العباد) ، حيث مدح الفقهاء من أهل الحديث ، بأنهم أسعد بالهدي النبوي ، من حيث أنهم يقنتون حيث قنت رسول الله ﷺ ، ويتركونه حيث تركه، فيقتدون به في فعله وتركه .

ويقولون : فعله سنة ، وتركه سنة ، ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه ، ولا يكرهون فعله ، ولا يرونه بدعة ، ولا فاعله مخالفًا للسنة ، كما لا ينكرون على ما أنكره عند النوازل، ولا يرون تركه بدعه ، ولا تاركه مخالفًا للسنة ، بل من قنت فقد أحسن ، ومن تركه فقد أحسن(١) .

ولعل هذا التسامح ، هو الأقرب لسنة من وصفه ربه بالرأفة ، والرحمة ، في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨) ، من نجاه ربه ، من أن يكون فظًا غليظ القلب ، حاشاه ، بل كان خُلقُه القرآن ، يعفو ، ويصفح ، ويستغفر لأمته ، ويشاورهم في الأمر ، فإذا عزم على إمضائه، فإنه يتوكل على الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

(١) انظر ابن القيم ، زاد المعاد ، ج ١/٢٧٤ - ٢٧٥ .

الخلاصة

* وهي إيجاز ما انتهت إليه هذه الدراسة ، في القنوت ، وأحكامه ، وآدابه ، وهو اختيارنا ، ولا بد من الرجوع لما فصلته من أحكام قنوت النوازل ، وخاصة ذكر دواعيه ، في حياتنا المعاصرة اليوم ، في وجه التحديات القائمة ، والأخطار .. وإنه لمن النوازل حقًا ، عدم اعتبار المسلمين لذلك ، وعدم انتباههم ، ومعرفتهم إلى أن ما حل بالمسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ، يستدعي قراءة النوازل كما فصل هذا الفصل .

* تدور معاني القنوت ، على الطاعة ، والاستجابة ، والاستكانة ، والخضوع ، والخشوع ، والإقرار بالعبودية ، ثم تأتي بمعنى الطاعة عامة ، والطاعة لله عز وجل ، ولرسوله ﷺ ، والطاعة في سكون ، والطاعة في خشوع ، والخشوع في الصلاة ، وطول الركوع في الصلاة .. وعليه ، فالقانت هو الخاشع في صلاته ، الذي يطيل في صلاته ، وركوعه .

* القنوت ، سنة مشروعة ، عن رسول الله ﷺ ، وقد ذهب مالك إلى أن القنوت في صلاة الصبح مستحب ، فيما ذهب الشافعي إلى أنه سنة . وقد أثبت الإمام البخاري سنية القنوت ، ومشروعيته في الصلاة ، حين بوب له في كتاب الوتر ، من صحيحه ، قال : (باب القنوت قبل الركوع ، وبعده) ، وقد علق على ذلك صاحب «فتح الباري» فقال : أثبت بهذه الترجمة - أي عنوان الباب - مشروعية القنوت ، إشارة إلى الرد على من روي عنه ، أنه بدعة كابن عمر .

* وقت القنوت :

في صلاة الصبح ، وهو مذهب مالك ، والشافعي ، للحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ ، قنت شهراً ، يدعو عليهم ، ثم ترك ، فأما في الصبح ، فلم يزل يقنت ، حتى فارق الدنيا) .

وذهب أبو حنيفة ، وأحمد ، إلى أن وقت القنوت ، هو الوتر في جميع السنة .. وفي رواية عن أحمد ، أن وقته الوتر ، في النصف الأخير من رمضان .. والصحيح الذي قام عليه الدليل من هدي النبوة ، مشروعية قنوت النوازل ، في الصلوات الخمس ، ويكون الدعاء فيه جهراً ، بعد الرفع من الركوع .

* محل القنوت في الصلاة الصبح :

قبل الركوع ، في الركعة الأخيرة ، وهذا مذهب مالك .. قال الشيخ علي الصعيدي، صاحب حاشية العدوي : إنه مع كونه أصح قبل الركوع ، لما فيه من الرفق بالمسبوق ، ولأنه الذي استقر عليه عمر رضي الله عنه ، بحضور الصحابة ، وما جاء عن أنس في ذلك ، يدل على أن القنوت للحاجة بعد الركوع لا خلاف فيه عنه ، وأما لغير الحاجة ، فالصحيح أنه قبل الركوع ، وقد اختلف عمل الصحابة في ذلك ، والظاهر أنه من الاختلاف المباح .

* محل القنوت في النوازل :

بعد الرفع من الركوع ، جهراً ، وفي بيان الحكمة من جعل القنوت في النوازل بعد الرفع من الركوع جهراً ، يقول ابن حجر العسقلاني : (وظهر لي أن الحكمة في جعل قنوت النازلة، في الاعتدال ، دون السجود ، مع أن السجود مظنة الإجابة ، كما ثبت «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**» ، وثبوت الأمر بالدعاء فيه ، أن المطلوب من قنوت النازلة أن يشارك المأموم الإمام ، ولو بالتأمين ، ومن ثم اتفقوا على أن يجهر به ، بخلاف القنوت في الصبح ، فاختلف في محله ، وفي الجهر به .

* يجوز الجمع بين الأدعية الواردة في القنوت ، وغيرها ، مع اختيار جوامع الدعاء، والإخلاص ، ومراعاة الاعتدال في الدعاء ، ومناسبته للقيام ، وحال المصلين .

* يستحب رفع اليدين ، في دعاء القنوت ، ويستحب للمأموم أن يؤمن على الدعاء، لما روي أن ابن عباس رضي الله عنهما قال :(قنت رسول الله ﷺ ، وكان يؤمن من خلفه) .

* لا يعني ما ورد من تركه ﷺ للقنوت ، أكثر من أنه ترك الدعاء على الكفار ، ولعنهم في قنوت النوازل ، لنزول قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ، كما نجد ذلك في نص الحديث .

* الإنصاف الذي يرتضيه العالم المنصف ، أنه ﷺ ، جهر ، وأسر ، وترك ، وقنت ، وكان إسراره أكثر من جهره .

* الأمر في القنوت ، واسع ، التزامًا له في صلاة الفجر ، أو الوتر ، أو عند النوازل ، كما سبق ذلك مع الأدلة ، وبيان آراء الفقهاء .

نسأل الله تعالى أن يتقبلنا وقراء هذا الفصل ، والمسلمين كافة ، وأن يوفقنا أجمعين لما يحب ، ويرضى ، وأن يجعلنا من عباد الله المخلصين ، القانتين ، الخاشعين ، المطيعين ، العابدين، الراكعين ، الساجدين ، المسبحين ، المفتقرين إليه جل جلاله ، والمفوضين أمرنا كله إليه تعالى ، كما نسأله تعالى أن يفقهنا في الدين ، وأن يزيدنا علمًا . سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

وصلى الله تبارك وتعالى، وسلم تسليمًا كثيرًا، على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

تطبيق الشريعة الإسلامية
وأثره في إصـلاح المجتمـع

وتتناول هذه الدراسة ، الشريعة ، وأثر تطبيقها في استقرار المجتمع ، وإصلاحه ، فنبين أولاً ، معنى الدين ، وأنه يشمل جميع علاقات الحياة الدنيا ، والآخرة ، من العبودية لله تعالى وطاعته ، والاستسلام لأمره ، والتزام الصراط المستقيم ، والاحتكام لشرع الله ، وإنفاذ أحكام القوانين الإسلامية ، في شؤون الحياة ، كلها ، الأسرية ، والمدنية، والجنائية ، حتى يكون الدين كله لله تعالى؛ مع بيان معنى الشريعة ، وأنها ما شرع الله لعباده من الدين ، وشمولها للعقيدة ، والشعائر ، والشرائع – خلافاً للفهم المتأخر ، من أنها القوانين ، وربما الحديّة منها خاصة – ثم نتناول معني الحدود ، لغة ، واصطلاحاً ، والتطور الدلالي لها ، مع بيان أثر إقامة الحدود ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، عامة ، في إصلاح المجتمع ، عقيدياً ، وأخلاقياً ، واقتصادياً ، وأمنياً ، وبركة في الحياة ، وتجاوباً شعبياً ، وما يحققه إنفاذ كل حد من مصالح للأفراد ، والجماعات ، وما يؤدي إليه ذلك ، من إصلاح المجتمع ، واستقراره . .

كما تتناول أيضاً ، أثر التوبة ، في رفع الحدود ، وإسقاط العقوبة ، لفتح باب الأمل في رحـمـة الله للتـوابين المتطهـرين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٢٢) .

وخُتمت الدراسة ، ببيان خصائص الشريعة الإسلامية .

من معاني .. « الدِّين »

الديَّان : من صفات الله ، عز وجل ، ومعناها : الحكم القاضي .. والديان : القهار ، وهو فعَّال ، من دان الناس ، أي قهرهم على الطاعة ، يقال : دنتهم فدانوا : أي قهرهم فأطاعوا .

وفي حديث أبي طالب ، قال له عليه الصلاة والسلام : «**أريد منهم – أي من قريش – كلمة واحدة تدين لهم العرب**»[1]، أي تطيعهم ، وتخضع لهم .

الدين : الجزاء ، والمكافأة ، ويوم الدين ، يوم الجزاء ، وفي المثل : كما تدين تدان ، أي كما تجازي ، تُجازى . وقوله تعالى: ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ (الصافات : ٥٣) ، أي : لمجزيون ، محاسبون ، ومنه الديَّان ، في صفة الله عزوجل .

الدين : الحساب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة : ٣) ، وقيل : معناه ، مالك يوم الجزاء .

والدين : الطاعة ، وقد دنته ودنت له ، أي أطعته ، يقال : دان بكذا ، ديانة ، وتدين به، فهو ديِّن ، ومتدين .

والدين : الإسلام ، وقد دنت به .

والدين : العادة ، والشأن ، لقول العرب : ما زال ذلك ديني ، وديدني، أي عادتي، وفي الحديث : «**الكيِّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله**»[2] .

---

(١) رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن .

(٢) رواه ابن ماجه .. (وضعفه الألباني) .

قال أبو عبيدة : (دان نفسه ، أي أذلها ، و استعبدها ، وقبل حسابها)

وفي التنزيل العزيز : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ (يوسف :٧٦) ، قال قتادة : في قضاء الملك ، أي الأغراض .. دان الرجل ، إذا عز .. ودان ، إذا أطاع .. ودان إذا عصى .. ودان إذا اعتاد ، خيراً أوشراً ... ودان إذا أصابه الدين ، وهو داء .

وقوله تعالى: ﴿ أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ (الصافات : ٥٣) أي مملوكون . وقوله تعالى : ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ (الواقعة : ٨٦) ، قال الفَرَّاء :غير مدينين ، أي مملوكين ، قال : سمعت غير مجزين .

ودنته ، أدينه ، ديناً : سسته .. ودنته ، ملكته .. ودينته القوم : وليته سياستهم .

الدين : يتدين به الرجل .

الدين : السلطان .



الدين : الورع .

الدين : القهر .

الدين : المعصية .

الدين : الطاعة [1] .

معاني الدين في لغة القرآن الكريم

ترد كلمة الدين ، في آيات القرآن الكريم ، على وجوه من المعاني المتعددة ، تفهم بحسب ورودها ، في سياق المعاني المرادة في مواضعها من تلك الآيات ، وقد تناول الحكيم الترمذي هذه المعاني بالدراسة ، والتحليل ، في كتابه : « تحصيل نظائر القرآن »، فقال :

وأما قوله تعالى : ﴿ الدين ﴾ على كذا وجه : فالدين هو الخضوع ، يقال : دان له ،

(١) كقوله تعالى : ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ (يوسف : ٤٠) .

أي خضع له ، مشتق من الدون ، وكل شيء ، دون شيء فهو له خاضع ، فخلق الآدمي ، والكبر فيه ، وراثة من صلابة الأرض وقوتها ، واقتضاهم أن يدينوا له ، أي يخضعوا له ، ويخضعوا لعظمته .

فالخضوع ، والخشوع ، مبتدأ من القلب إلى الأركان ، حتى يظهر على الأركان بالائتمار بأمره ، والتناهي عن نهيه ، والقبول لأحكامه ، والانقياد له .

١ - **شهادة ألا إله إلا الله** : وإنما صار الدين في هذا المكان ، شهادة ألا إله إلا الله[١]، لأن الموحد لا يشهد بهذه الشهادة ، إلا بعد خضوعه لله ، وسقوطه بين يديه تذللاً، وتسليماً لرقبته .

٢ - **الحساب** : وإنما صار الدين « الحساب »[٢] في مكان آخر ، لأنه إذا جاء الحساب ، دان العبد ، فلم يقدر أن يجحد ، فإن جحد ، نطقت الجوارح ، فالحساب من الله ، مطالبته ما وجب له على العبد ، فيما عهد إليه،وفيما قلده ، وفيما ضمن العبد ، فيطالبه بالوفاء لذلك .. فذاك كله خضوع ، يحل بالعبد .

٣ - **حكم الله وقضاؤه** : وإنما صار الدين ، حكم الله وقضاءه في مكان آخر : لأنه إذا حل بالعبد حكمه وقضاؤه ، دان العبد له .

٤ - **حكم الملك الذي حبس يوسف عليه السلام** : وإنما صار الدين حكم الملك[٣]، الذي حبس يوسف عليه السلام ، لما وضحنا أن الدين : الخضوع عند الحكم .

٥ - **الإخلاص ، والإسلام ، والإيمان** : وإنما صار الدين الإخلاص ، والإسلام، والإيمان[٤] : فإنما أسلم المسلم ، و أشرك المشرك ، خضوعاً لله ، وللوثن ، ليقربه إلى الله

---

(١) كقوله تعالى : ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ (يوسف : ٤٠) .

(٢) كقوله تعالى : ﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ (الصافات : ٢٠) .

(٣) كقوله تعالى : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ (يوسف : ٧٦) .

(٤) كقوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (آل عمران : ١٩) .

زلفى ، لذلك وصف الله في تنزيله عز شانه فقال : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر : ٣) وإنما سمي شرك المشرك، وكفره ، ديناً ، لأنه اتخذ إلهاً من دونه، فخضع له، فقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون : ٦) ، أي لكم خضوعكم لمن خضعتم له، ولي خضوعي لمن خضعت له [١] .

معنى الدين في الاصطلاح :

والدين بمعناه الاصطلاحي ، شامل لمعانيه الواردة في لغة القرآن الكريم ، من أنه الحساب، والجزاء ، والمكافاة ، وبمعنى الطاعة ، والخضوع ، والانقياد لأمرالله عز وجل ، وبمعنى الحكم ، والقضاء ، والقانون الجنائي ، والحدود خاصة ، وهذا المعنى الأخير بحاجة إلى بيان ؛ لكثرة الشبه ، التي آثارها عليه الغزو الأجنبي ، وما تبعه من نظم الحكم العلمانية .
وقد جاء بهذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ (يوسف : ٧٦) ، أي في سلطانه ، وحكمه ، وقضائه .. أما في سورة النور فقد جاءت الآية : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (النور : ٢) ، في إشارة خاصة إلى الحدود ، وهي جزء من أحكام القوانين الجنائية ، التي يختص بالحكم فيها الحاكم ، أو من أنابه عنه .

ويلزم من ذلك ، وجوب إقامة الدولة الإسلامية ، والحكم بالشريعة الإسلامية ، مع ما يتبع ذلك من فقه سياسة الأمة ، وسيادة الدولة .

---

(١) الحكيم الترمذي ، تحصيل نظائر القرآن : تحقيق حسني نصر زيدان ، ط ١ ، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ، القاهرة ، ص ١١٩/١٢١ .

معنى .. « الشريعة »

أولاً : معنى الشريعة في اللغة العربية :

الشِّرعة ، والشريعة ، في كلام العرب : مَشْرَعَةُ الماء ، وهي موردُ الشاربةِ ، التي يَشْرَعُها الناسُ ، فيشربون منها ، ويستقون .. والعرب لا تسميها شريعة ، حتى يكون الماء عِدًّا ، لانقطاع له ، ويكون ظاهراً مَعِيناً ، لا يُسْقى بالرِّشاء.. كما ترد كلمة (شرع) بمعنى أظهر، وشرع فلان ، إذا أظهر الحق ، وقمع الباطل .

والشريعة : العادة ، وهذا شرعة ذلك ، أي مثاله .. والشارع ، الطريق الأعظم ،الذي يَشْرَعُ فيه الناس عامة . وأشرع الشيء : رفعه جداً ، وحيتانٌ شُرُوعٌ : رافعة رؤوسها [1] .

ثانياً : معنى الشريعة كما وردت في القرآن الكريم :

(أ) يقول الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ .. ﴾ . (الشورى : ١٣) ، ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية : شرع لكم من الدين ، ما شرع لقوم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾، وهو توحيد الله ، وطاعته ، والإيمان برسله ، وكتبه ، وبيوم الجزاء ، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً .. ولم يرد المصالح ، التي هي مصالح الأمم ، على أحسن أحوالها ، فإنها مختلفة ، متفاوتة . قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة : ٤٨). ويتابع القرطبي تفسير هذه الآية ، مسنداً ذلك إلى القاضي

---

(١) انظر لسان العرب المحيط ، ابن منظور ، دار العرب ، بيروت ، المجلد الثاني ، ص ٢٩٩ .

أبي بكر بن العربي ، أنه قال : ثبت في الحديث الصحيح ، أن النبي ﷺ قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور : **«ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض......»** (١).

وهذا صحيح لا إشكال فيه ، كما أن آدم أول نبي بغير إشكال ، لأن آدم لم يكن معه إلا نبوة ، ولم تفرض له الفرائض ، ولا شرعت له المحارم ، إنما كان نبياً على بعض الأمور، واقتصاراً على ضرورات المعاش ، وأخذاً بوظائف الحياة، والبقاء ، واستقر المدى ، إلى نوح، فبعثه الله بتحريم الأمهات، والبنات، والأخوات ، ووظف عليه الواجبات ، وأوضح له الآداب في الديانات .. ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ، ويتناصر بالأنبياء ، صلوات الله عليهم، واحداً بعد واحداً ، وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ، ملتنا ، على لسان أكرم الرسل ، نبينا محمد ﷺ ، فكان المعنى : أوحيناك يا محمد ، ونوحاً ، ديناً واحداً ، يعني الأصول ، التي لا تختلف فيها الشريعة ، وهي : التوحيد ، والصلاة ، والزكاة، والحج ، و التقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والزلف إليه بما يرد القلب ، والجارحة إليه ، والصدق ،والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم ، وتحريم الكفر ، والقتل ، والزنا، والأذية للخلق ، كيفما تصرفت ، والاعتداء على الحيوانات ، كيفما دار ، واقتحام الدناءات، وما يعود بخرم المروءات ، فهذا كله مشروع ، ديناًواحداً ، وملة متحدة ، لم تختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم ، وذكر قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى : ١٣)، أي اجعلوه قائماً، يريد دائماً، مستمراً، محفوظاً، مستقراً ، من غير خلاف فيه ، ولا اضطراب ، فمن الخلق من وفى بذلك ، ومنهم من نكث : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ (الفتح : ١٠) .. واختلفت الشرائع وراء هذه ، في معان حسبما أراده الله ، فما اقتضت المصلحة ، وأوجبت الحكمة ، وضعه في الأزمنة على الأمم (٢) .

(١) القرطبي ، في تفسير آية : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ﴾ .
(٢) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١٦ ، ص ١٦٣/١٦٤ .

(ب) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية : ١٨) ، فالشريعة ، من شرع الله لعباده، من الدين، والجمع : الشرائع . . والشرائع في الدين ، المذاهب ، التي شرعها الله لخلقه . فمعنى : ﴿ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ ، أي على منهاج واضح من أمر الدين، يشرع بك إلى الحق . قال ابن العربي : والأمر يرد في اللغة بمعنيين ، أحدهما بمعنى الشأن، كقوله: ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (هود:٩٧) . . والثاني أحد أقسام الكلام ، الذي يقابله النهي، وكلاهما يصح أن يكون مراداً ها هنا ، وتقديره : ثم جعلناك على طريقة من الدين ، وهي ملة الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل: ١٢٣) . والاختلاف في أن الله تعالى، لم يغاير بين الشرائع في التوحيد ، والمكارم ، والمصالح ، وإنما خالف بينهما في الفروع ، حسبما علمه سبحانه [١] . قال ابن عباس : ﴿ **على شريعة** ﴾ ، أي على هدى من الأمر .

وقال قتادة : الشريعة : الأمر ، والنهي ، والحدود ، والفرائض .

وقال مقاتل : البينة ، لأنها طريق إلى الحق .

وقال الكلبي : السنة ، لأنه يستند بطريقة من قبله من الأنبياء .

وقال ابن دريد : الدين ، لأنه طريق النجاة .

ج – وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة : ٤٨) يذهب الإمام القرطبي ، إلى دلالة هذه الآية : (على عدم التعليق بشرائع الأولين) ، وأن (الشريعة ، الطريقة الظاهرة ، التي يتوصل بها إلى النجاة) . . والمنهاج :

---

(١) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٦ ، ص ٢٠٩/٢١١ .

الطريق المستمر ، وهو المنهج .. والمنهج ، اي البين ، وروى ابن عباس ،والحسن ، وغيرهما : ﴿ شرعةً ومنهاجاً ﴾ ، سنة ، وسبيلاً .. ومعنى الآية: انه جعل التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله.

وهذا في الشرائع والعبادات .. والأصل ، والتوحيد ، لا اختلاف فيه . روي معنى ذلك عن قتادة . وقال مجاهد : الشرعة ، والمنهاج ، دين محمد عليه السلام ، وقد نسخ به كل ما سواه [١].

الخلاصة في بيان معنى الشريعة :

والخلاصة ، أن هذه الآيات ، وماسبق في تفسيرها ، تدل على شمول معنى الشريعة ، لكل ما جاء به الدين ، من مباحث الإيمان ، وفقه أركان الإيمان، والإسلام ، والأسرة ، ووجوب الحكم بما شرع الله ،حتى يهتدي الناس بذلك في شؤون حياتهم كلها ، في الاعتقاد ، والشعائر التعبدية ، والشرائع ، التي تنظم حياة المجتمع ، في قوانين الأخلاق ، والآداب ، والمعاملات المدنية ، والجنائية ،التي تشمل الأحكام الحدية والتعزيرية . ثم أن الله قد أغنى المسلمين، بما شرعه في دين الإسلام ، عن متابعة ما لدى الملل الأخرى ، أو النظم الغربية ، أو الشرقية .

وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، يعني الحكم بما انزل الله ، وهو واجب ديناً ، قال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة : ٤٩) .. ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠) .. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟

---

(١) انظر القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ج ١٦ ، ص ٢٠٩/٢١١ .

﴿ ... الأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ... ﴾ (النحل : ٩٠) .. ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

وأخيراً ، فإنه لا سبيل لتحقيق العدل ، والإحسان ، وأداء الأمانات ، إلا بتحكيم الشريعة ، والتسليم الكامل لذلك . ثم إنه لاخيار لمسلم ، يؤمن بالله، واليوم الآخر ، إلا في هذا الاحتكام لشرع الله ، وطاعة الله ، ورسوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

الحد .. في اللغة .. والاصطلاح

أولاً : معنى كلمة « حد » في اللغة :

الحد مفرد ، وجمعه حدود ، وترد كلمة الحد ، في اللغة العربية ، على عدة معان :

١ - **بمعنى الفصل بين الشيئين** : لئلا يختلط أحدهما بالآخر ، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر .. ومنتهى كل شيء حده ، ومنه حدود الأرضين ، وحدود الحرم .

٢ - **بمعنى التمييز** : وحَدَّدَه : ميزه ، وحد كلٌّ ، منتهاه ؛ لأنه يرده ، ويمنعه عن التمادي .

٣ - **بمعنى المنع** : وحد الرجل عن الأمر ، يحده حداً : منعه ، وحبسه ، تقول : حددت فلاناً عن الشر ، أي منعته .

٤ - **بمعنى المخالفة ، والمعادة ، والمحادة** : المعادة ، والمخالفة ، والمنازعة ، وهو مفاعلة من الحد ؛ كان كل واحد منهما يجاوز حده إلى الآخر .

﴿ ... الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... ﴾ (النحل : ٩٠) .. ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

وأخيراً ، فإنه لا سبيل لتحقيق العدل ، والإحسان ، وأداء الأمانات ، إلا بتحكيم الشريعة ، والتسليم الكامل لذلك . ثم إنه لاخيار لمسلم ، يؤمن بالله، واليوم الآخر ، إلا في هذا الاحتكام لشرع الله ، وطاعة الله ، ورسوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

الحد .. في اللغة .. والاصطلاح

أولاً : معنى كلمة « حد » في اللغة :

الحد مفرد ، وجمعه حدود ، وترد كلمة الحد ، في اللغة العربية ، على عدة معان :

١ - **بمعنى الفصل بين الشيئين** : لئلا يختلط أحدهما بالآخر ، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر .. ومنتهى كل شيء حده ، ومنه حدود الأرضين ، وحدود الحرم .

٢ - **بمعنى التمييز** : وحَدَّدَه : ميزه ، وحد كلٌّ ، منتهاه ؛ لأنه يرده ، ويمنعه عن التمادي .

٣ - **بمعنى المنع** : وحد الرجل عن الأمر ، يحده حداً : منعه ، وحبسه ، تقول : حددت فلاناً عن الشر ، أي منعته .

٤ - **بمعنى المخالفة ، والمعادة ، والمحادة** : المعادة ، والمخالفة ، والمنازعة ، وهو مفاعلة من الحد ؛ كان كل واحد منهما يجاوز حده إلى الآخر .

٥ - بمعنى الحلال ، والحرام :

وحدود الله تعالى ، التي بيَّن تحريمها ، وتحليلها ، وأمر ألا يُتَعدَّى شيء منها ، فيتجاوز إلى غير ما أُمر فيها ، أو نهي عنه منها ، ومنع من مخالفتها ، قال الأزهري : فحدود الله عز وجل ضربان :

ضرب منها : حدود حدها للناس ، في مطاعمهم ، ومشاربهم ، ومناكحهم ، وغيرها ، مما أحل وحرم ، وأمر بالانتهاء عمَّا نهى عنه منها ، ونهى عن تعديها .

والضرب الثاني : عقوبات ، بأن جعلت لمن ارتكب ما نهى الله عنه ، كحد السرقة، وكحد القاذف ، لأنها تحد ، أي تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها .

وسميت الأولى حدوداً ، لأنها نهايات ، نهى الله عن تعديها .

قال ابن الأثير : فكأن حدود الشرع ، فصلت بين الحلال ، والحرام ، فمنها ما لا يقرب ، كالفواحش المحرمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ (البقرة : ١٨٧) ، ومنها ما لا يتعدى ، كالمواريث المعينة ، وتزوج الأربع ، ومنه قوله تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ (البقرة : ٢٢٩)

ومنها الحديث - في قول ماعز - : إني أصبت حداً فاقمه علي ؛ أي أصبت ذنباً ، أوجب عليَّ حداً ؛ أي عقوبة (١) .

وفي حديث أبي العالية ، أن اللمم - الوارد في الاية : ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ (النجم : ٣٢) - ما بين الحدين ؛ حد الدنيا ، وحد الآخرة ؛ يريد بحد الدنيا : ما تجب فيه الحدود المكتوبة ؛ كالسرقة ، والزنا ، والقذف . ويريد بحد الآخرة : ما توعد الله تعالى عليه العذاب ؛ كالقتل، وعقوق الوالدين ، وأكل الربا . . فأراد أن اللمم من الذنوب ، ما كان بين هذين ، فيما لم يوجب عليه حداً في الدنيا ، ولا تعذيباً في الاخرة .

---

(١) الحديث رواه البخاري ، ومسلم .

ثانياً : معنى الحد في الاصطلاح :

الحد ، عقوبة مقدرة لأجل حق الله ، فيخرج التعزير ؛ لعدم تقديره ، أو القصاص ؛ لأنه حق آدمي [1] .

وسميت عقوبات المعاصي ، حدوداً ، لأنها تمنع العاصي ، من العود إلى تلك المعصية ، التي حُدَّ لأجلها ، في الغالب [2] .

قال ابن حجر العسقلاني : وقد حصر بعض العلماء ، ما قيل بوجوب الحد به ، في سبعة عشر شيئاً ؛ فمن المتفق عليه : الردة ، والحرابة – ولم يتب قبل القدرة عليه – ، والزنا ، والقذف ، وشرب الخمر – سواء أسكر أم لا – والسرقة[3] .

وقد ذهب ابن رشد ، إلى إطلاق كلمة الحد ، على كل العقوبات المقدرة ، في الكتاب والسنة ، حيث يقول : (الجنايات ، التي لها حدود مشروعة ؛ جنايات على الأبدان ، والنفوس ، والأعضاء ،وهي المسماة ، قتلاً ، وجرماً .. وجنايات على الزوج ، وهي المسماة ، زنا ، وسفاحاً ، وجنايات على الأموال ...) [4] .

هذا ، ويتبين مما سبق ، أن الحدود كانت تطلق بتوسع ، حتى بلغ بعض الفقهاء ، بمعناها الاصطلاحي ، ما أشار إليه ابن حجر العسقلاني ، في قوله المتقدم .. أما جمهور الفقهاء ، فقد اتفقوا على الحدود الخمسة التالية : السرقة ، والحرابة ، والزنا ، والقذف ، والخمر ، واختلفوا فيما سواها .

---

(١) لسان العرب ، مادة حد .
(٢) الشوكاني ، نيل الأوطار .
(٣) فتح الباري ، ٥٩/١ .
(٤) ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ٣٦١/٢ .

العقـــوبات الحـــدية :

وهي سبع عقوبات :

١ - الجلد ، ودليله :

(أ) قوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (النور : ٢) .

(ب) وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور : ٤).

(جـ) لما صح في السنة ، من جلد شارب الخمر ، وهكذا فعل الخلفاء الراشدون .

٢ - القطـــــع :

ودليله ، قول الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٨) .

٣ - الـقـــتـل .

٤ - الـصـــلـب .

٥ - القطع من خلاف .

٦ - الـنـــفـــي .

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ

﴿وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة : ٣٣-٣٤) .

٧ - **الرجـــــم** ، وقد ثبت بالسنة النبوية الصحيحة .

أثر إقامة الحدود في إصلاح المجتمع

(أ) **عقدياً** : سلامة الاعتقاد ،واتساق المسلم مع نفسه ، بتحكيم الشريعة، وحفظ الدين ، وصيانته في وجه المرتدين ، الخارجين عليه ، المحادين لله ،ورسوله .

(ب) **أخلاقياً** : الاستقامة ، والعفاف ، والطهر ، وحسن المظهر العام ،وتعليم الأمة أفراداً ، وجماعات ، وتربيتها على حب الفضيلة ، وكراهية الرذيلة ، وبغض أهلها ، وشهود ما يجري عليهم، من إقامة الحد : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢)، مقارنة بما في العالم الغربي ، من جرائم متكاثرة ، ربما رأوها معيار حضارة ، وتقدم ، قياساً على مقدار ما يستهلكونه، من طاقة كهربائية .

يضاف إلى ذلك : استقرار الأسر ، وحمايتها من التشرد ، وحفظ الأعراض، وصيانة الأنساب ، وطهارة المجتمع ، وسد أبواب الفساد ، والفحش، والبذاءة ، والتبذير ، وإفساد العقول ، ورعاية مصلحة المجتمع في ذلك كله ، وإن وقع الضرر في ذلك على أفراد معينين.

(جـ) **اقتصادياً** : حفظ المال ، وتنميته ، وحماية الملكية ،وإعلاء العمل ، وحسن استثمار الوقت .

وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٣-٣٤) .

٧ - الرجـــــم ، وقد ثبت بالسنة النبوية الصحيحة .

أثر إقامة الحدود في إصلاح المجتمع

(أ) **عقدياً** : سلامة الاعتقاد ،واتساق المسلم مع نفسه ، بتحكيم الشريعة، وحفظ الدين ، وصيانته في وجه المرتدين ، الخارجين عليه ، المحادين لله ،ورسوله .

(ب) **أخلاقياً** : الاستقامة ، والعفاف ، والطهر ، وحسن المظهر العام ،وتعليم الأمة أفراداً ، وجماعات ، وتربيتها على حب الفضيلة ، وكراهية الرذيلة ، وبغض أهلها ، وشهود ما يجري عليهم، من إقامة الحد : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢)، مقارنة بما في العالم الغربي ، من جرائم متكاثرة ، ربما رأوها معيار حضارة ، وتقدم ، قياساً على مقدار ما يستهلكونه، من طاقة كهربائية .

يضاف إلى ذلك : استقرار الأسر ، وحمايتها من التشرد ، وحفظ الأعراض، وصيانة الأنساب ، وطهارة المجتمع ، وسد أبواب الفساد ، والفحش، والبذاءة ، والتبذير ، وإفساد العقول ، ورعاية مصلحة المجتمع في ذلك كله ، وإن وقع الضرر في ذلك على أفراد معينين.

(جـ) **اقتصادياً** : حفظ المال ، وتنميته ، وحماية الملكية ،وإعلاء العمل ، وحسن استثمار الوقت .

(د) **أمنياً** : الأمن على النفس ، والعرض ، وفي الممتلكات ، لأن السرقة عدوان على الملكية ، والحرز ، وما يتحقق من أمن اجتماعي، بإقامة الشريعة .

(هـ) **التجاوب الشعبي** : لأن الشعب ، يدرك بفطرته ، أنه تتجلى آية كمال الإيمان، ومنتهى الصدق ، في توجه الدولة إلى الله ، بإقامة الحاكم لشرع الله ، مع العناية بتنفيذ الحدود ، لأن في ذلك مباينة تامة ، ومفارقة كاملة ، للقوانين الوضعية .. وفي سبيل ذلك ، يبايع الحاكم ، إماماً للمسلمين ، وتبذل له الطاعة الخالصة ، ويجاهد وراءه ، ويتحمل الشعب المعاناه في المعاش، والحصار الاقتصادي .

(و) **بركة الحياة** : حيث تتنزل البركة على المجتمع ، فينعم الفرد ، والجماعة، بفضل الاستجابة لأمر الله تعالى ، الاستقامة على شرع الله ، بنزول الغيث ، ونماء الزرع ، وكثرة القوت ، والأمن من فتنة الجدب ، والجوع ، واختلال الأمن ، وانتشار الخوف ،والرعب ، يقول تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ (قريش: ٣-٤) : وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف :٩٦) .. ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ (الجن : ١٦) .

أثر تطبيق حد الزنا في إصلاح المجتمع

الردع الحاسم ، بعقوبة تكافيء جريمة مقيتة ، حمل عليها سعار الشهوة البهيمية ، دون مراعاة لكرامة الإنسان ، المميز على غيره ، أو احترام لنظام الشريعة، الذي وثق العلائق الزوجية ، وصانها ، فسن الرضا ، والإيجاب ، والقبول ،والإشهاد ،والإشهار ، حتى امتن الله على عباده بهذه النعمة ، وجعلها من علامات قدرته : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم

(د) **أمنياً** : الأمن على النفس ، والعرض ، وفي الممتلكات ، لأن السرقة عدوان على الملكية ، والحرز ، وما يتحقق من أمن اجتماعي، بإقامة الشريعة .

(هـ) **التجاوب الشعبي** : لأن الشعب ، يدرك بفطرته ، أنه تتجلى آية كمال الإيمان، ومنتهى الصدق ، في توجه الدولة إلى الله ، بإقامة الحاكم لشرع الله ، مع العناية بتنفيذ الحدود ، لأن في ذلك مباينة تامة ، ومفارقة كاملة ، للقوانين الوضعية .. وفي سبيل ذلك ، يبايع الحاكم ، إماماً للمسلمين ، وتبذل له الطاعة الخالصة ، ويجاهد وراءه ، ويتحمل الشعب المعاناه في المعاش، والحصار الاقتصادي .

(و) **بركة الحياة** : حيث تتنزل البركة على المجتمع ، فينعم الفرد ، والجماعة، بفضل الاستجابة لأمر الله تعالى ، الاستقامة على شرع الله ، بنزول الغيث ، ونماء الزرع ، وكثرة القوت ، والأمن من فتنة الجدب ، والجوع ، واختلال الأمن ، وانتشار الخوف ،والرعب ، يقول تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾ (قريش: ٣-٤) : وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف :٩٦) .. ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ (الجن : ١٦) .

أثر تطبيق حد الزنا في إصلاح المجتمع

الردع الحاسم ، بعقوبة تكافيء جريمة مقيتة ، حمل عليها سعار الشهوة البهيمية ، دون مراعاة لكرامة الإنسان ، المميز على غيره ، أو احترام لنظام الشريعة، الذي وثق العلائق الزوجية ، وصانها ، فسن الرضا ، والإيجاب ، والقبول ،والإشهاد ،والإشهار ، حتى امتن الله على عباده بهذه النعمة ، وجعلها من علامات قدرته : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم : ٢١) .

ولذلك كانت عقوبة المجاهرة بهذه الفاحشة ، حتى شهد عليها ، بصورتها المغلظة ، أربعة شهود عدول ، أو جاء الزاني مقراً على نفسه بالزنا ، وجاء بكامل قواه العقلية ، وطوعه، واختياره ، مريداً تطهير نفسه ، بإقامة الحد عليه.. وكانت حكمة الشريعة عظيمة في سن هذه العقوبة الرادعة للجاني ، حتى لا يعاودها ، والزاجرة لغيره ، عن الاقتراب من هذه الفاحشة .. وتحقيقاً للزجر المراد ، كان حد الزاني المحصن ، كما أمر الله تعالى : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢)

ولأن هذه الجريمة ، تنشأ عادةً من سعار الشهوة ، وما يصاحبها من إغواء ، وإغراء ، بحيث لا يكف عن الاقتراب منها ، صاحبها ، ما لم يخوّف ، ويواجه بعقوبة مشددة ، مع افتضاح أمره ، وشهود الناس ، والمجتمع عليه ، يقام عليه الحد .. وبتنفيذ هذا الحد ، تحفظ الأعراض، وتصان الأنساب ، وتؤدى الحقوق ، ويسلم المجتمع .

أثر تنفيذ حد القذف في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ ـ كف السفهاء من تدنيس المجتمع ، ورمي الأطهار ، واتهامهم بالفواحش ، وتخويفهم من عاقبة ذلك ، حتى هددهم الله تعالى بالعقوبة الدنيوية ، والأخروية .. قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ (النور : ١٩) .. ثم فصلت الآية الكريمة ، وهي الرابعة من سورة النور ،

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم : ٢١).

ولذلك كانت عقوبة المجاهرة بهذه الفاحشة ، حتى شهد عليها ، بصورتها المغلظة ، أربعة شهود عدول ، أو جاء الزاني مقراً على نفسه بالزنا ، وجاء بكامل قواه العقلية ، وطوعه، واختياره ، مريداً تطهير نفسه ، بإقامة الحد عليه.. وكانت حكمة الشريعة عظيمة في سن هذه العقوبة الرادعة للجاني ، حتى لا يعاودها ، والزاجرة لغيره ، عن الاقتراب من هذه الفاحشة .. وتحقيقاً للزجر المراد ، كان حد الزاني المحصن ، كما أمر الله تعالى : ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور : ٢)

ولأن هذه الجريمة ، تنشأ عادةً من سعار الشهوة ، وما يصاحبها من إغواء ، وإغراء ، بحيث لا يكف عن الاقتراب منها ، صاحبها ، ما لم يخوّف ، ويواجه بعقوبة مشددة ، مع افتضاح أمره ، وشهود الناس ، والمجتمع عليه ، يقام عليه الحد .. وبتنفيذ هذا الحد ، تحفظ الأعراض، وتصان الأنساب ، وتؤدى الحقوق ، ويسلم المجتمع .

أثر تنفيذ حد القذف في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ - كف السفهاء من تدنيس المجتمع ، ورمي الأطهار ، واتهامهم بالفواحش ، وتخويفهم من عاقبة ذلك ، حتى هددهم الله تعالى بالعقوبة الدنيوية ، والأخروية .. قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (النور : ١٩).. ثم فصلت الآية الكريمة ، وهي الرابعة من سورة النور ،

العقوبة الحدية للقذف ، من الجلد ، وإسقاط الشهادة ، والاتصاف بالفسق : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور : ٤) .

٢ - حماية المجتمع من انتشار الفاحشة ، وخدش حياء المحصنات ، العفيفات ، الطاهرات .

٣ - حماية الأعراض ، وشرف الأسر الكريمة ، من المرجفين ، والمستهزئين.

٤ - زجر الفساق ، من الطعن في الأنساب الكريمة ، التي هي أساس التواصل ، والتعارف : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣) .. ولقد وصف الله ﷺ من يسب إخوانه ، بالفسق، حيث قال :«**سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر**»[(١)]، بل وصف عليه الصلاة والسلام ، المسلم الحق بأنه: « **من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[(٢)].

أثر تنفيذ حد الخمر في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ - حماية العقول ، وعدم تعطيلها .

٢ - حفظ الكيان الأسري ، من التفكك ، والانهيار ، وضياع الأولاد .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ، انظر فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٢٦ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ، ويده انظر فتح الباري ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

العقوبة الحدية للقذف ، من الجلد ، وإسقاط الشهادة ، والاتصاف بالفسق : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور : ٤) .

٢ – حماية المجتمع من انتشار الفاحشة ، وخدش حياء المحصنات ، العفيفات ، الطاهرات .

٣ – حماية الأعراض ، وشرف الأسر الكريمة ، من المرجفين ، والمستهزئين.

٤ – زجر الفساق ، من الطعن في الأنساب الكريمة ، التي هي أساس التواصل ، والتعارف : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات : ١٣) .. ولقد وصف الله ﷺ من يسب إخوانه ، بالفسق، حيث قال :«**سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر**»[١]، بل وصف عليه الصلاة والسلام ، المسلم الحق بأنه: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[٢].

أثر تنفيذ حد الخمر في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ – حماية العقول ، وعدم تعطيلها .

٢ – حفظ الكيان الأسري ، من التفكك ، والانهيار ، وضياع الأولاد .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» ، انظر فتح الباري ، جـ ١٣ ، ص ٢٦ .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ، ويده انظر فتح الباري ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

٣ ـ حفظ المال ، من إضاعته في شراء الخمر ، ومن تبديده ، وصرفه في غير وجه حق، بسبب غياب العقل .

٤ ـ حفظ الأمانات ، وعدم إفشاء الأسرار ، واستخدام الأعداء للمخمورين ، في معرفة بعض الخبايا ، والأسرار .

٥ ـ الكف عن جرائم عديدة ، تقود إليها الخمر ، فهي حقاً أُم الخبائث .

٦ ـ الحفاظ على الصحة النفسية ، والجسمية ، للأفراد ، والجماعات .

٧ ـ عدم تبديد الوقت ، وتضييعه .

٨ ـ مضاعفة الانتاج ، بتوظيف الطاقات العاملة في المجتمع .

أثر حد السرقة في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ ـ كف السارقين ، وردعهم بعقوبة غليظة ، وزجر من تسول له نفسه ، أن يسرق ، بقطع يده ، وافتضاح أمره ، وهوانه على الناس .

٢ ـ التنفير من أكل أموال الناس بالباطل ، على وجه السرقة ، بعقوبة حاسمة، ورادعة، وزاجرة ، لتكون صورة السارق المحدود ، باعثة على كراهية جريمة السرقة .

٣ ـ حفظ الملكية الخاصة ، وأموال الناس ، وقد اجتهدوا في جمع المال ، وتنميته لمصلحة المجتمع .

٤ ـ إعلاء قيمة العمل ، والإنتاج ، والكسب الحلال ، ليكون وسيلة للتملك ، والاقتناء ، من أداء حق الله فيه، نحو المجتمع ، على وجه الوجوب ، بالزكاة ، والكفارات، أو على وجه الإحسان ، صدقة ، وبراً ، وصلة .

٥ ـ تحقيق الأمن ، والاطمئنان النفسي للفرد ، وللمجتمع .

٣ ــ حفظ المال ، من إضاعته في شراء الخمر ، ومن تبديده ، وصرفه في غير وجه حق، بسبب غياب العقل .

٤ ــ حفظ الأمانات ، وعدم إفشاء الأسرار ، واستخدام الأعداء للمخمورين ، في معرفة بعض الخبايا ، والأسرار .

٥ ــ الكف عن جرائم عديدة ، تقود إليها الخمر ، فهي حقاً أُم الخبائث .

٦ ــ الحفاظ على الصحة النفسية ، والجسمية ، للأفراد ، والجماعات .

٧ ــ عدم تبديد الوقت ، وتضييعه .

٨ ــ مضاعفة الانتاج ، بتوظيف الطاقات العاملة في المجتمع .

أثر حد السرقة في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ ــ كف السارقين ، وردعهم بعقوبة غليظة ، وزجر من تسول له نفسه ، أن يسرق ، بقطع يده ، وافتضاح أمره ، وهوانه على الناس .

٢ ــ التنفير من أكل أموال الناس بالباطل ، على وجه السرقة ، بعقوبة حاسمة، ورادعة، وزاجرة ، لتكون صورة السارق المحدود ، باعثة على كراهية جريمة السرقة .

٣ ــ حفظ الملكية الخاصة ، وأموال الناس ، وقد اجتهدوا في جمع المال ، وتنميته لمصلحة المجتمع .

٤ ــ إعلاء قيمة العمل ، والإنتاج ، والكسب الحلال ، ليكون وسيلة للتملك ، والاقتناء ، من أداء حق الله فيه، نحو المجتمع ، على وجه الوجوب ، بالزكاة ، والكفارات، أو على وجه الإحسان ، صدقة ، وبراً ، وصلة .

٥ ــ تحقيق الأمن ، والاطمئنان النفسي للفرد ، وللمجتمع .

٦ – الرحمة بالناس ، بإقامة حد السرقة ، رعاية للحكمة المرادة ، من ذلك، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (المائدة : ٣٨–٣٩) ، وذلك لأن في كف الناس عن السرقة ، وزجرهم ، عنها رحمة بهم ، من تكفير عن السارق ،وزجر للغير.. فالحدود زواجر وجوابر معاً ، ومن رحمة الله بالمجتمع، في صيانة المال، الذي هو قوام الحياة ، وحماية الملكية الخاصة ، وإعلاء قيمة العمل ، ، والاعتماد على النفس في الكسب ، والإنتاج .

وفيما تقدم ، تحقيق لمعاني الرحمة ، ولئن كانت فاصلة الآية السابقة ، ببيان حد السرقة، تصفه سبحانه ، بالعزة ، والحكمة ، فإن التالية لها تختم بالغفران، والرحمة ، فسبحان الله تعالى المشرع ، الحكيم ، العادل ، الموصوف بالرأفة ، والرحمة ، وهو تعالى القائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحج: ٦٥)، وصلوات الله المباركات ، وتسليماته الزاكيات ، على رسوله الأمين ، الذي أقام الشريعة ، ونفذ الحدود ، والذي وصفه ربه بالرأفة ، والرحمة، وأنزل عليه في هذا الشأن ، في أواخر ما نزل من القرآن: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨).

أثر تنفيذ حد الحرابة في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ – حفظ المال ، من أن يعتدى عليه بالقوة ، والغلبة ، فتتعطل مصالح الأفراد ، والجماعات ،وللوقاية من أن يستخدم المعتدون القوة ، في أخذ أموال الناس ، فكانت العقوبة مشددة ، أكثر من عقوبة السرقة العادية .

٦ - الرحمة بالناس ، بإقامة حد السرقة ، رعاية للحكمة المرادة ، من ذلك، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٩ ﴾ (المائدة : ٣٨-٣٩) ، وذلك لأن في كف الناس عن السرقة ، وزجرهم ، عنها رحمة بهم ، من تكفير عن السارق ،وزجر للغير.. فالحدود زواجر وجوابر معاً ، ومن رحمة الله بالمجتمع، في صيانة المال، الذي هو قوام الحياة ، وحماية الملكية الخاصة ، وإعلاء قيمة العمل ، ، والاعتماد على النفس في الكسب ، والإنتاج .

وفيما تقدم ، تحقيق لمعاني الرحمة ، ولئن كانت فاصلة الآية السابقة ، ببيان حد السرقة، تصفه سبحانه ، بالعزة ، والحكمة ، فإن التالية لها تختم بالغفران، والرحمة ، فسبحان الله تعالى المشرع ، الحكيم ، العادل ، الموصوف بالرأفة ، والرحمة ، وهو تعالى القائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحج:٦٥)، وصلوات الله المباركات ، وتسليماته الزاكيات ، على رسوله الأمين ، الذي أقام الشريعة ، ونفذ الحدود ، والذي وصفه ربه بالرأفة ، والرحمة، وأنزل عليه في هذا الشأن ، في أواخر ما نزل من القرآن: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨).

أثر تنفيذ حد الحرابة في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ - حفظ المال ، من أن يعتدى عليه بالقوة ، والغلبة ، فتتعطل مصالح الأفراد ، والجماعات ،وللوقاية من أن يستخدم المعتدون القوة ، في أخذ أموال الناس ، فكانت العقوبة مشددة ، أكثر من عقوبة السرقة العادية .

٢ ـ حفظ الأعراض ، من الانتهاك ، باستخدام القوة ، أو الإكراه على الفاحشة ، يقول القرطبي : (إذا أراد إخافة الطريق ، بإظهار السلاح ، قصداً ، للغلبة على الفروج ، فهذا أفحش ، وأقبح ، من أخذ المال)[1] ، ولذلك كانت شدة العقوبة بالقتل ، دون تفرقة بن كون الزاني محصناً ، أو غير محصن .

٣ ـ حفظ الأنفس ، والآمنين ، من إرهاب المحاربين ، المحادين لله ورسوله ، فلا عفو من أحد ، ولو كان ولي الدم ، أو الإمام ، بل تتحتم العقوبة على المحاربين .

٤ ـ تأمين الطريق ، والمجتمع ، ونشر الطمأنينة فيه ، والاستقرار ، وكف شر المحاربين ، المعتدين على سلامة الأرواح ، والدماء ، والأعراض ، والأموال .

٥ ـ استقرار الدولة ، والمجتمع ، وإخلاص الولاء لولاة الأمور ، من الحكام المسلمين .

٦ ـ حرية الحركة ، والتنقل ، وما يؤدي إليه ذلك من نهضة اقتصادية .

أثر إقامة القصاص في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ ـ كف المعتدين ، من الجناية على الأنفس ، والأرواح ، والجوارح ، والأعضاء ، وحماية المجتمع من الاعتداء ، بعضه على بعض ، ومن التقاتل ثأراً، بعقوبة رادعة ،وزاجرة ، ومماثلة لما فعله الجاني بأخيه .. يقول تعالى في وجوب إقامة القصاص : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ (البقرة : ١٧٨) ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ

(١) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٦ ، ٦/١٥٦

٢ ـ حفظ الأعراض ، من الانتهاك ، باستخدام القوة ، أو الإكراه على الفاحشة ، يقول القرطبي : (إذا أراد إخافة الطريق ، بإظهار السلاح ، قصداً ، للغلبة على الفروج ، فهذا أفحش ، وأقبح ، من أخذ المال)[١] ، ولذلك كانت شدة العقوبة بالقتل ، دون تفرقة بن كون الزاني محصناً ، أو غير محصن .

٣ ـ حفظ الأنفس ، والآمنين ، من إرهاب المحاربين ، المحادين لله ورسوله ، فلا عفو من أحد ، ولو كان ولي الدم ، أو الإمام ، بل تتحتم العقوبة على المحاربين .

٤ ـ تأمين الطريق ، والمجتمع ، ونشر الطمأنينة فيه ، والاستقرار ، وكف شر المحاربين ، المعتدين على سلامة الأرواح ، والدماء ، والأعراض ، والأموال .

٥ ـ استقرار الدولة ، والمجتمع ، وإخلاص الولاء لولاة الأمور ، من الحكام المسلمين .

٦ ـ حرية الحركة ، والتنقل ، وما يؤدي إليه ذلك من نهضة اقتصادية .

أثر إقامة القصاص في إصلاح المجتمع

من ذلك :

١ ـ كف المعتدين ، من الجناية على الأنفس ، والأرواح ، والجوارح ، والأعضاء ، وحماية المجتمع من الاعتداء ، بعضه على بعض ، ومن التقاتل ثأراً، بعقوبة رادعة ،وزاجرة ، ومماثلة لما فعله الجاني بأخيه .. يقول تعالى في وجوب إقامة القصاص : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ (البقرة : ١٧٨) ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ

(١) انظر القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٦ ، ١٥٦/٦

﴿ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة : ٤٥) ، ويقول تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة : ١٩٤) ، ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ (النحل : ١٢٦) ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٩) .

٢ - تأمين المجتمع ، من انتشار الجرائم ، والعدوان ، بعضه على بعض ، وتماسك المجتمع ، واستقراره ، بالقصاص ، أو بالعفو عنه ، ممن جعلت لهم الشريعة هذا الحق .. وفي إثبات حق أولياء الدم في العفو ، ما يحقق رعاية هذا الأمر ،ويحقق التسامح مع من وقع في الخطيئة ، من غير أن يكون من معتادي الجرائم ، مع مراعاة حق الإمام الحاكم ، في أن يوقع بالجاني ، عقوبة تعزيرية مناسبة .

التوبة وأثرها في رفع الحدود أو العقوبة

أولاً : سقوط عقوبة المرتد بالتوبة :

وهو رأي جمهور الفقهاء : أنه يجب أن يستتاب المرتد ، فإن تاب ، عفي عنه وأخلي سبيله . (١)

ثانياً : سقوط عقوبة المحاربة بالتوبة :

إذا تاب المحارب ، قبل المقدرة عليه ، فإن العقوبة المقررة المنصوص عليها ، تسقط .. يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد : ابن رشد ، جـ ٢ ، ص ٤٥٩ .

﴿ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة : ٤٥) ، ويقول تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة : ١٩٤) ، ويقول تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ (النحل : ١٢٦) ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة : ١٧٩) .

٢ - تأمين المجتمع ، من انتشار الجرائم ، والعدوان ، بعضه على بعض ، وتماسك المجتمع ، واستقراره ، بالقصاص ، أو بالعفو عنه ، ممن جعلت لهم الشريعة هذا الحق .. وفي إثبات حق أولياء الدم في العفو ، ما يحقق رعاية هذا الأمر ،ويحقق التسامح مع من وقع في الخطيئة ، من غير أن يكون من معتادي الجرائم ، مع مراعاة حق الإمام الحاكم ، في أن يوقع بالجاني ، عقوبة تعزيرية مناسبة .

التوبة وأثرها في رفع الحدود أو العقوبة

أولاً : سقوط عقوبة المرتد بالتوبة :

وهو رأي جمهور الفقهاء : أنه يجب أن يستتاب المرتد ، فإن تاب ، عفي عنه وأخلي سبيله . (١)

ثانياً : سقوط عقوبة المحاربة بالتوبة :

إذا تاب المحارب ، قبل المقدرة عليه ، فإن العقوبة المقررة المنصوص عليها ، تسقط .. يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد : ابن رشد ، جـ ٢ ، ص ٤٥٩ .

﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ (المائدة: ٣٣-٣٤).

ثالثاً : سقوط عقوبة الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، بالتوبة:

وهو رأي الحنابلة ، وبعض الفقهاء ، أن التوبة إذا حدثت قبل وصوله إلى الإمام ، فإنها تُسقط عنه الحد ، ومستدلين بأن الآيات الموجبة للعقوبة ، المنصوص عليها ، تلتها آيات التوبة ، والمغفرة ، والرحمة ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ (النساء : ١٦) ، وقال أيضاً : ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة : ٣٩) .

كما جاءت التوبة، بعد عقوبة الشرك ، والقتل ، كما في قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ (الفرقان: ٦٨-٧٠).

ويستدلون ، بأن إقامة النبي ﷺ الحدَّ على من جاء تائباً ، أن ذلك خاص بهم ، بأنهم طلبوا تطهيراً لأنفسهم [1] .

والتوبة النصوح ، باب عظيم في الأمل في رحمة الله ،وفضله ، ونيل محبته تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ (البقرة : ٢٢٢) .. وقد ندب الله تعالى إلى التوبة النصوح ،

---

(١) انظر ابن قدامة : المغني ، ٢٩٦/٨ ، وابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين ، ٩٧/١ .

فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحريم : ٨) .

وعندما يحقق المؤمن التوبة ، فإنه يحقق لنفسه الاستقرار النفسي ، ويتخلص من العقد النفسية ، التي تؤرقه ، إلى جانب تكفير السيئات ، وسقوط العقوبات ، المترتبة على اقتراف تلك المخالفات .

رابعاً : سقوط حد القذف بالتوبة :

وفي أثر توبة القاذف، في سقوط الحد عنه ، نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور : ٤-٥) .

خصائص الشريعة الإسلامية

ومن أبرز خصائص الشريعة الإسلامية :

١ - تحقيق العدالة ، مع الإحسان في الحكم ، والمساواة بين الناس كافة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) ، ومن ذلك ، النهي عن الشفاعة في الحدود ، بعد بلوغها الإمام ، وفيه حديث أسامة المشهور : « **أتشفع في حد من حدود الله ؟ !**[1] »

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحدود : كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان .

فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحريم : ٨) .

وعندما يحقق المؤمن التوبة ، فإنه يحقق لنفسه الاستقرار النفسي ، ويتخلص من العقد النفسية ، التي تؤرقه ، إلى جانب تكفير السيئات ، وسقوط العقوبات ، المترتبة على اقتراف تلك المخالفات .

رابعاً : سقوط حد القذف بالتوبة :

وفي أثر توبة القاذف، في سقوط الحد عنه ، نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور : ٤-٥) .

خصائص الشريعة الإسلامية

ومن أبرز خصائص الشريعة الإسلامية :

١ - تحقيق العدالة ، مع الإحسان في الحكم ، والمساواة بين الناس كافة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) ، ومن ذلك ، النهي عن الشفاعة في الحدود ، بعد بلوغها الإمام ، وفيه حديث أسامة المشهور : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ ![1] »

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحدود : كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان .

٢ - إقامة الرقيب الداخلي : التزكية الإيمانية ، على الطاعة ، والاستقامة ، كآداب الاستئذان ، وغض البصر ، والخلوة ، والبعد عن الفواحش ، وما يؤدي إليها ، وبغضها ، لأنها ليست من أخلاق المؤمنين ، مع ما ورد من الزجر عنها ، ووصف مقترفيها بالفسق ، وتخويفهم بالخزي ، والنكال في الدنيا ، وعذاب الآخرة ؛ الأمر الذي يجمع بين الديانة ، والقضاء ، وفي حديث صحيح **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »** [١] .

٣ - رعاية مصلحة المجتمع ، وسد باب الفساد ، وإن أوقع ذلك بعض الضرر ، على أفراد معينين .

٤ - إحياء الرقيب الاجتماعي : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والرقابة الاجتماعية على المجتمع ، بأداء واجب الحسبة ، لإحداث الرقي الأخلاقي ، في المجتمع .

٥ - تيسير أبواب الحلال ، والطيبات ، مع الحض عليه ، فيما يغلق أبواباً من الشر ، والمنكرات .

٦ - الطبيعة الحاسمة لأحكام الشريعة ، في مقابل القوانين الأوربية الوضعية ، التي تبالغ في العقوبات (الحبس والسجون) ، وقد صار أثرها السيء واضحاً في تعليم الإجرام، وإفساد السجناء ، بما يقترف في السجون ، من منكرات ، مع ما يؤدي إليه الحبس من كراهية المجتمع ، وتعميق روح الانتقام، وضياع أسر السجناء .. زيادة على ذلك ، فإن هذه السجون ، عبء على الأمة ، في إيواء المجرمين ، وإعاشتهم .

٧ - كون هذه العقوبات ، المقدرة في الشريعة : ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة : ٣٨) ، أي عبرة للآخرين ، عن مصير المجرم المحدود ، ليتجنبوا فعل ما أوجب تلك العقوبة، ممن شهدوا إقامة الحد عليه ، أو رأوا أثره.

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي .

٨ - استقلال المسلمين ، وتميزهم في الأمم ، والحضارات المعاصرة ، خاصة بهذه التشريعات ، ولذلك فإن الغرب شديد العداء ، والمقاومة لهذه التشريعات الإسلامية عامة ، والحدية منها خاصة ، لأنها تخص المسلمين ، وتميزهم عن غيرهم ، وتقطع أمل الأعداء في رد المسلمين عن دينهم : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ﴾ (المائدة :٣) .

ومهما يكن من نفور الغرب ، من بعض أحكام الشريعة ، ووصفها بالقسوة، فإنه لاجئ إليها اضطراراً ، كما رجعت أمريكا مضطرة لإعادة عقوبة الإعدام . ومع أن الغرب لا يزال يستخدم اسم الإنسانية ، وحقوق الإنسان ،في تشويشه على التشريعات الإسلامية ، حتى على عقوبة الجلد ، فإن قانون العقوبات الإنجليزي ، قد تضمن في مواده ، عقوبة الجلد ، وظل هذه القانون معمولاً به في بعض البلاد الإسلامية ، مثل السودان ، إلى وقت سن التشريعات الإسلامية .

ومهما يكن من عداء الغرب ، وغيره ، للشريعة ، والدعاية الظالمة ضدها ، فإنها دعوة منصورة ، بإذن الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (محمد : ٧) .. ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ ﴾ (الحج : ٤٠) .. ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١٢٦) .. ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣ ﴾ (الصافات : ١٧١-١٧٣) .. ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾ (المجادلة : ٢١) .. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١) .

تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في مجتمع تتعدد فيه الملل والثقافات

وتتناول هذه الدراسة ، موضوع تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، في مجتمع تتعدد فيه الملل والثقافات .

وبعبارة أخرى ، تجيب عن أسئلة ، كثيراً ما تثار حول :

(أ) الأسس التي وضعها الإسلام ، في مجال التعامل مع غير المسلمين ، لتكون هادية للفرد ، والمجتمع ، والدولة ، ولتكون ديانة يدين بها المسلمون، ويلتزمون أحكامها ، طاعة لله ، وعبادة ، وتكون مع ذلك قضاءً ، وقوانين حاكمة ، للدولة والمجتمع .

(ب) التعامل مع المواطنين ، من غير المسلمين ، ممن يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة في الدولة ، التي تحمي قوانينها حرمات المواطنين ، وحقوقهم في الحياة، والتكريم ، والحرية الاعتقادية، والفكرية . . وعن المساواة، والعدل، والتعليم، والعمل، والتملك، والتصرف فيه .

(جـ) التكامل في المجتمع ، والوطن ، حتى يسود المجتمع كله ، خلقُ البر ، والقسط ، والتراحم ، والمعاملة الحسنة .

ومن ثمّ ، فإن هذه الدراسة ، تهدف إلى تحقيق مزيدٍ من التعاون بين جميع المواطنين ، على اختلاف مللهم ، وثقافاتهم في مجتمع الشريعة الإسلامية ، حيث تتكافل جهودهم جميعاً ، وتتفجر الطاقات من أجل نهضة البلاد وتقدمها ، وسيادتها ، على ضوء تلكم القواعد والأسس العادلة ، التي تحقق التسامح الديني ، والتآلف ، والتواصل الاجتماعي ، والفكري ، بين جميع المواطنين .

وها هنا نذكر بشيء من البيان والتفصيل ، ما أُجمل فيما سبق ، فنتحدث و بشكل عام عن : وحدانية البشرية ، والدين ،وأصل الاختلاف ، وأسس التعامل مع غير المسلمين.

منشــأ البشــرية

يرجع البشر كلهم إلى أصل واحـد ، تفرعوا عنه ، ونفـس واحـدة ، خلقـوا منها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (النساء : ١) .. والقرآن يذكرنا بهذا الأصل ، الذي تفرعت عنه الشعوب والقبائل ، ليتعارف الناس فيما بينهم ، ويتواصلوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات : ١٣) .. وتقريراً لهذا الأصل ، قال عليه الصلاة والسلام ، في خطبة الوداع :

« **يا أيهـا الناس إن أباكم واحـد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فـضل لعـربي على عجمي ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى** » [١] .

وأصل الدين واحـد ، من عند الله جل جلاله ، أنزل الكتب على رسله الكرام ، الذين تعاقبوا مبشرين ومنذرين ، يدعون إلى توحيد الله . والإيمان بهم جميعاً ، واجب ، دون تفرقة بينهم ، لقوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ (البقـرة : ٢٨٥) ؛ ولقـوله أيضـاً : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٦) .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، ج ٥ ، ص٤١١

اختلاف الناس :

وقد قدَّر الله تعالى، أن يكون بين البشر، اختلاف في الدين: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود : ١١٨ ـ ١١٩).

وهذا ما يخبرنا به الخلاق العليم جل جلاله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) .

وتبعاً لذلك ، فللناس حرية الرأي ، والفكر ، والاختيار للعقيدة ، التي يعتقدونها : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩) ، وليس لأحد ، ولا قوة ، أن تكره فرداً ، أو جماعة ، على دين ، يقول تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .

وهي مشيئة الله القاضية ، أن يترك الناس واختيارهم الحر ، وما يدينون : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩) .

الإسلام والحرية الفكرية

والإسلام هو دين الحرية الفكرية ، الذي تواترت فيه آيات الكتاب ، الداعية إلى التفكر والنظر ، ولا حجر على أحد في حرية الفكر ، والتعبير عن آرائه ، إلا إذا صار الأمر افتراء محضاً ، أو إثارة للفتنة . وما جاء في القرآن الكريم ، وسيرة النبي ﷺ ، من ذكر أقوال المخالفين من غير المسلمين ، على اختلاف مللهم ، ومناقشة هذه الأقوال بالحجة ، والبرهان ،

اختلاف الناس :

وقد قدَّر الله تعالى، أن يكون بين البشر، اختلاف في الدين: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود : ١١٨ ـ ١١٩).

وهذا ما يخبرنا به الخلاق العليم جل جلاله : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤).

وتبعاً لذلك ، فللناس حرية الرأي ، والفكر ، والاختيار للعقيدة ، التي يعتقدونها : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩) ، وليس لأحد ، ولا قوة ، أن تكره فرداً ، أو جماعة ، على دين ، يقول تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة : ٢٥٦).

وهي مشيئة الله القاضية ، أن يترك الناس واختيارهم الحر ، وما يدينون : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩).

الإسلام والحرية الفكرية

والإسلام هو دين الحرية الفكرية ، الذي تواترت فيه آيات الكتاب ، الداعية إلى التفكر والنظر ، ولا حجر على أحد في حرية الفكر ، والتعبير عن آرائه ، إلا إذا صار الأمر افتراء محضاً ، أو إثارة للفتنة . وما جاء في القرآن الكريم ، وسيرة النبي ﷺ ، من ذكر أقوال المخالفين من غير المسلمين ، على اختلاف مللهم ، ومناقشة هذه الأقوال بالحجة ، والبرهان ،

دليل واضح على هذه الحرية ، كما هو دليل على امتداد بقاء غير المسلمين ، وسماحة التعامل معهم .. وقدكانت هذه الحقيقة ، واضحة في المواقف ، التي وقفها كل داعية إلى الإسلام ، وسيظل معلماً بارزاً لكل الأجيال ، موقف الصحابي الجليل ربعي بن عامر، رضي الله عنه ، حين أجاب على القائد الفارسي رستم : « إن الله ابتعثنا ، لنخرج من شاء الله، من عبادة العباد ، إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (١) .

والواقع التاريخي ، يثبت أنه على توالي القرون ، في تاريخ الدعوة الإسلامية، لم يحدث أن أكره المسلمون غيرهم على الدين ، وهذا ما شهد به كل منصف ، ولو كان غير مسلم ، مثل « السير توماس آرنولد » في كتابه : (الدعوة إلى الإسلام) الذي كتب فيه عن تاريخ نشر الدعوة الإسلامية ، في أرجاء العالم، وكيف أن دعاة الإسلام ، نشروا دعوتهم بين أقوام ، عرفوا بالشدة ، والخروج على كل نظام ، أو قانون ، حتى أسلموا ، وصاروا دعاة يهدون غيرهم » (٢).

ويمضي آرنولد في هذه الشهادة ، ليقول : (لم نسمع عن أية محاولة مدبرة ، لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام ، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين) (٣) ، ويزيد آرنولد في بيان تسامح المسلمين فيقول :

(لا يسعنا إلا الاعتراف ، بأن تاريخ الإسلام ، في ظل الحكم الإسلامي، يمتاز ببعده بعداً تاماً ، عن الاضطهادالديني) (٤) .

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف ، ج٣،ص٥٢٠.
(٢) السير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، انظر على سبيل المثال : ص ١٢٨ ، ١٢٩، ١٤٩، ١٧٠.
(٣) المصدر السابق ، ص ٧٩
(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

وهذه شهادة منصفة أخرى ، يؤديها « ول ديورنت » ، في كتابه : « قصة الحضارة » ، حيث يقول : (لقد كان أهل الذمة ، المسيحيون ، والزردشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يتمتعون في عهد الخلافة الأموية ، ،بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية، في هذه الأيام ، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم، ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من أداء ضريبة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله) [1] .

وهذه الحرية لغير المسلمين ، تشمل التعبير عن معتقداتهم ، بالتعليم والممارسة ، وأداء شعائر دينهم، فردياً ، وجماعياً .

أدب الدعوة والحوار مع غير المسلمين

وإذا كان ثم حوار، أو مجادلة ، أو مناقشة، فالأدب القرآني يقضي أنه : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

فهي دعوة إذاً تعتمد الأدب ، والحجة ، والبيان ، لمن أراد من غير المسلمين الاستبصار في الدين ، فيُجادل بالتي هي أحسن ، لتكون أنجح فيه كما قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ (النحل:١٢٥)، ولا تكون مواجهة بالقوة ، إلا حين يختار الطرف الآخر ذلك ، ويكون من أهل الحرب [2] .

---

(١) ول ديورنت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٤ م ، مطبعة التأليف ، والترجمة والنشر ، مجلد ١٣، ص ١٣٠.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير ج ٣ ، ص ٤١٦ – ٤١٧ .

وهذه شهادة منصفة أخرى ، يؤديها « ول ديورنت » ، في كتابه : « قصة الحضارة » ، حيث يقول : (لقد كان أهل الذمة ، المسيحيون ، والزردشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يتمتعون في عهد الخلافة الأموية ، ،بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية، في هذه الأيام ، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم، ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من أداء ضريبة عن كل شخص ، تختلف باختلاف دخله) (١) .

وهذه الحرية لغير المسلمين ، تشمل التعبير عن معتقداتهم ، بالتعليم والممارسة ، وأداء شعائر دينهم، فردياً ، وجماعياً .

أدب الدعوة والحوار مع غير المسلمين

وإذا كان ثم حوار، أو مجادلة ، أو مناقشة، فالأدب القرآني يقضي أنه: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٦) .

فهي دعوة إذاً تعتمد الأدب ، والحجة ، والبيان ، لمن أراد من غير المسلمين الاستبصار في الدين ، فيُجادل بالتي هي أحسن ، لتكون أنجح فيه كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل:١٢٥)، ولا تكون مواجهة بالقوة ، إلا حين يختار الطرف الآخر ذلك ، ويكون من أهل الحرب (٢) .

---

(١) ول ديورنت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٤ م ، مطبعة التأليف ، والترجمة والنشر ، مجلد ١٣، ص ١٣٠.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير ج ٣ ، ص ٤١٦ - ٤١٧ .

التطبيق العملي في عهد النبوة والخلافة الراشدة

والوثائق ، والعهود ، والأمثلة التالية ، دليل قاطع على هذه الحرية الفكرية ، والتسامح الديني :

١ - وثيقة المدينة :

أول وثيقة تفصيلية ، بين المسلمين وأهل الكتاب ، ضمنت حرية الاعتقاد، والفكر ، وحقوق المواطنة الكاملة ، هي الوثيقة المعروفة بوثيقة المدينة(١) وهي تبدأ هكذا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب محمد النبي ، رسول الله ، بين المؤمنين، والمسلمين من قريش، وأهل يثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة ، من دون الناس (٢) .

٢ - عهد النبي ﷺ لأهل نجران :

وهو عهد ضمن لنصارى نجران ، الأمان على أنفسهم ، وأموالهم ، وعشيرتهم ، وأماكن عبادتهم ، وألا يغير أسقف ، ولا راهب ، ولا كاهن(٣) .

٣ - عهد أبي بكر لأهل نجران :

ولما آلت الخلافة إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فإنه أكد في عهد منه لأهل نجران ، أنه

---

(١) انظر الوثيقة الأولى في كتاب د . محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، ط ٤ ، دار النفائس ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م ، ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٩

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٥- ١٧٦ .

أجارهم بجوار الله ، وذمة النبي محمد رسول الله ﷺ على أنفسهم، وأرضهم ، وملتهم ، وعبادتهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وفاءً لهم بكل ما ورد في العهد النبوي لنصارى نجران (١) .

٤ - عهد عمر لأهل إيلياء :

وعلى ذات النهج ، سار عمر رضي الله عنه ، فأعطى لأهل إيلياء عهداً ، وأماناً لأنفسهم ، وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم ، وسقيمهم ، وبريئهم ، وسائر ملتها ، ألا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، وألا يضار أحد ، ولا يكره على الدين (٢) .

وقد التزمت مشروعات القوانين ، المستمدة من نفس الشريعة الإسلامية، وخاصة في مسائل التعامل مع غير المسلمين ، أعدل الأقوال ، والآراء ، وأوثقها، وأدومها ، وأنسبها لتحقيق العدل والإحسان ، مع رعاية لظروف المكان ، والزمان . .

وغير المسلمين ، أشبه بأهل العهد ، الذين حررت بشأنهم وثيقة المدينة ، والعهد النبوي مع أهل نجران . ومما ينبغي أن يعلم بهذه المناسبة ، أن اصطلاح أهل الذمة ، في الفقه الإسلامي ، ليس كما لم يحسن فهمه كثير من الناس . فالذمة في اللغة ، بمعنى : الأمان ، والعهد ، والضمان ، والكفالة (٣) .. وأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى ، واليهود ، من أهل الكتاب ، وغيرهم ، ممن بقي في دارالإسلام (٤).

---

(١) المصدر السابق ، والصفحة نفسها .
(٢) د. محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٤٨٨ .
(٣) القاموس المحيط ، ط المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ج ٤، ص ١١٥ .
(٤) محمد بن الحسن الشيباني ، «شرح السير الكبير » ، مطبعة دار المعارف النظامية ، حيدر أباد الدين ، الهند ، ط١ ، سنة ١٣٣٥ م ، ج١ ، ص ١٦٨ .

وعليه ، فالذمة هي العهد ، أي العهد الذي يعهده الإمام ، أو من ينوب عنه ، مع غير المسلمين على السلم ، ووضع الحرب .. وعقد الذمة ، كما عبر عنه بعض الفقهاء المعاصرين، يشبه التجنس في الوقت الحاضر [1] .

ويلحق بأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، غيرهم من جميع الملل ، غير الإسلامية ، كالمجوس ، حيث ورد في الهدي النبوي ، أنه أخذ الجزية من مجوس هجر . [2]

ويؤيده ما ورد في صحيح البخاري ، عن عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر [3] .

وأيضاً ، فقد روي مرسلاً عن النبي محمد ﷺ أنه قال : « **سنوا بهم سنة أهل الكتاب** » [4] .

ويقول في ذلك ، الإمام علي رضي الله عنه : « من كان له ذمتنا ، فدمه كدمنا ، ودَيْنهُ كَدَيْنِنَا » ، وأنهم « إنما بذلوا الجزية ، لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا »[5].. وفي مصنف الإمام عبد الرزاق [6] أن رجلاً مسلماً ، قتل آخر من أهل الذمة ، في عهد عمر بن عبد العزيز ، فاقتص من المسلم بالذمي .

(١) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ، ص٢٤ .
(٢) المدونة الكبرى ، ٣٢ ، ص ٤٦
(٣) صحيح البخاري ، ج ٤، ص ٦٢ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢١.. البلاذري : فتوح البلدان ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م ، ص ٢٦٧ .
(٥) سنن الدارقطني ، كتاب الحدود ، ج٥ ، ص ٢٥٠.
(٦) ج١٠ ، ص ١٠١ ، حديث رقم ١٨٥١٥ – ١٨٥١٨ .

العدل والحقوق المتساوية لغير المسلمين

المساواة أمام القانون :

ويتمتع كل مواطن بهذه المساواة أمام القانون ، وهو أمر رباني لا يحتمل مساومة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .. وهذه الآية الكريمة ، تأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ، مسلمين أو غير مسلمين ، كما تقضي بأن يلتزم العدل في الحكم بين الناس كلهم، دون تمييز، بسبب اختلاف الدين، أو العنصر ، أو الثقافة ، أو الجنس ، أو اللون . والمؤمنون مأمورون ديناً ، أن يكونوا قوامين بالقسط في كل موقف، لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ (المائدة : ٨) .

وبموجب هذا العقد ، يصير غير المسلمين كالمسلمين ، في حرمة الدماء، والأموال ، يقول ﷺ : **« من قتل معاهداً لم ير رائحة الجنة ، وأن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً »** [(١)] ، ويقول في حديث غيره : **« ألا من ظلم معاهداً ، أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة »** [(٢)] .

واستقر هذا الفقه يسود في العهد النبوي ، وعهد الخلافة الراشدة ، واستمر إلى زمن المماليك ، والدولة الإسلامية . واتساقاً مع موقف المسلمين الثابت ، في حماية غير المسلمين،

---

(١) صحيح البخاري ، ج٤ ، ص ٦٥ .
(٢) سنن أبي داود ، ج ٣ ، ص ١٧١ .

من أهل ذمتهم ، في دمائهم ، وأموالهم ، أنه لما أراد أحد سلاطين التتار أن يطلق سراح أسرى المسلمين ، دون النصارى ، اعترضه الإمام ابن تيمية ، لأنه سرى في حقهم ما يسري في حق المسليمن ، وأنه إن لم يطلق سراحهم ، جاهد المسلمون ، واستأنفوا القتال ، لافتكاكهم .. ولابن تيمية رسالة مشهورة بهذا الخصوص ، اسمها : (الرسالة القبرصية)[1] .

الجزية وحق الدفاع :

وحكمة مشروعية عقد الذمة ، هي أن يترك الحربي القتال ، مع احتمال دخوله في الإسلام ، عن طريق مخالطته للمسلمين ، و اطلاعه على شرائع الإسلام .

وليس المقصود من عقد الذمة ، تحصيل المال [2] ، وقد كان دفع الجزية واجباً على كل رجل بالغ ، قادر ، حسب طاقته ، نظير الحماية والدفاع ، حتى إن القادة المسلمين ، كانوا يردون على غير المسلمين ، ما دفعوا من جزية ، إذا لم يقدروا على القيام بواجب الحماية والدفاع ، بل كان بعض الخلفاء الراشدين – وهو عمر رضي الله عنه – يسقط دفع الجزية عن غير المسلمين الذين يشتركون مع الجيش ، ويؤدون خدمات عسكرية ، وهو ما نأخذ به في عصرنا هذا .

والتفسير الصحيح لكلمة الصغار في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة : ٢٩) ، هو جريان أحكام الشريعة عليهم، وإعطاء الجزية ، فإنّ التزام ذلك هو الصغار [3] ، وفي ذلك يقول الشافعي :

---

(١) مجموع الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ، ج ٢٨ ، ص ٦٠١ .

(٢) عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ، ص ٢٣ ، وانظر : المراجعة شرح الخرشي ، ج٣ ، ص ١٤٣ ، نيل الأوطار ، ج ٨ ، ص ٥٨ ، والمغني ، ج ٨ ، ص ٥٠٥ .

(٣) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ج١ ، ص ٢٢ .

وسمعت عدداً من أهل العلم ، يقولون : إن الصغار أن يجري عليهم حكم الإسلام[1]، وفي ذلك رد ، على من زعم أن الصغار هو الإذلال .. وتأسيساً على ما تقدم، فليس يصح ما نسب لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من شروط سميت بالشروط العمرية[2] ، وإسنادها ضعيف اتفاقاً، حتى إن ابن القيم ، لم يجد سبيلاً لتأكيدها، إلا بأن قال : إن شهرة هذه الشروط ، تغني عن إسنادها .

وقد أنكر محقق الكتاب ، د . صبحي الصالح ، هذه العلة ، لأن الاستفاضة لم تكن دليلاً على الصحة في موضوع تاريخي ، تشريعي كهذا ، ثم وصف هذه الشروط بأنها متضاربة ، ومتناقضة[3] والواقع أن هذه الشروط، تخالف ما صح من جملة العهود ، والمواثيق النبوية ، كوثيقة المدينة ، وعهد النبي ﷺ لأهل نجران ، وعهد أبي بكر رضي الله عنه أيضاً لأهل نجران، وكانوا نصارى ، كما أنها تخالف العهود العمرية ، كعهد عمر رضي الله عنه لأهل إيليا ، الذي نص على إعطاء الأمان للنصارى ، على أنفسهم ، وأموالهم، وكنائسهم ، وصلبانهم ، وأنهم لا يكرهون ، ولا يضار أحد منهم[4].

حـق التعليم :

ويدل على مكانة العلم في الإسلام ، أن أول كلمة نزلت منه هي : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق : ١) ، وتوفير العلم بمختلف تخصصاته ، وفنونه ، واجب المجتمع ، والدولة ، وقد شهد الواقع العملي للمسلمين ، ما كان يتمتع به غير المسلمين ، من امتلاك

---

(١) الشافعي ، الأم ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

(٢) ابن القيم ، أحكام أهل الذمة ، ج١ ، ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر ، « حاشية » ، ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٤) انظر ص ١٥١ ، من هذا الكتاب .

ناصية العلم ، في كثير من التخصصات، التي لا غنى عنها في أي مجتمع ، كالطب والهندسة. ويشمل هذا الحق ، الرجل ، والمرأة ، على السواء ..ومن واجب الدولة ، تنمية شخصية الإنسان ، وتوسيع ثقافته .. وقد ذهب ابن حزم ، إلى إلزامية التعليم ، وأن الإمام يجبر النساء على التعليم (١) .. وفي الجانب التطبيقي ، كان التعليم تاريخيًا متاحًا للجميع، من أدنى المراحل التعليمية ، إلى أعلى المراحل ، والتخصصات .. وتوزيع الفرص الدراسية ، محكوم بأسس عادلة ، هي التميز العلمي .

عقوبة المرتد على الخيانة العظمى :

وقتل المرتد ، ليس عقوبة على الفكر ذاته ، لأن غير المسلمين ، قد كفل لهم الإسلام ، حرية العقيدة ، وحمايتها ، من غير إكراه ، ولا تضييق ، لكن هذه العقوبة على الجناية الكبرى ، والمكيدة الدينية ، التي ادعى بها المرتد اعتناق الإسلام ، ثم أعلن الخروج منه ، للطعن فيه ، والإساءة إليه ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٢) .

ولقد تحدث ابن قيم الجوزية في كتابه ، زاد المعاد (٢) عن الردة ، وأثرها على الأمن الداخلي لدولة الإسلام ، وأنها ليست مسألة فردية .

---

(١) ابن حزم ، الأحكام في أصول الأحكام ، ج٣ ، ص ١٨١

(٢) انظر ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج٢ ، ص ٤١٩.

الشـريعة الإسـلامية وحقـوق الشـعوب والأقـاليم

وفي ظل تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، تتحقق للشعوب حقوقها الجامعة .. وقد حكم القاضي المسلم لأهل سمرقند ، بحق تقرير مصيرهم ، لأنهم كانوا أُدخلوا في سلطان الدولة ، بالقوة ، دون اختيارهم ، ودون مراعاة أحكام الشريعة ، القاضية بالتخيير ، والإعلام، والإنذار ، لأن استخدام القوة الجهادية، ليس في الواقع ، إلا لرفع الإكراه ، على اعتناق دين ، أو على المنع منه .

كما يكفل نظام الحكم الإسلامي ، حق الحكم الذاتي ، مع حق التمييز الثقافي للأقاليم، التي يكون فيها غير المسلمين متحيزين في مكان يخصهم ، ويباشرون بأنفسهم إدارة شؤونهم ، مع الاحتكام إلى محاكمهم ، بما كان يجعلهم في حكم الأقاليم الآن ، وهكذا كان الشأن مع نصارى نجران ، الذين كانوا على عهد دولة المدينة ، خارج حدودها، وجاءت اتفاقية المدينة تؤكد هذا المعنى [1] .. وهذا الاستثناء، ليس استثناءً من الجريمة ، بحيث يعد الفعل مباحاً ، بل وضعت عقوبات تعزيرية لهذه الجرائم ، عدا الخمر والردة .. ولم يقفل الطريق أمام المسلم القوي ، المتثبت في دينه ، أن يطلب تطبيق الحدود عليه ، بل إن هذا الحق ، من المطالبة بالطوع ، والاختيار ، ثابت لغير المسلم .

والتأصيل الفكري لمبدأ استثناء غير المسلمين ، من تطبيق أحكام الحدود ، يعتمد على نص الآية الكريمة : ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(1) انظر الوثائق المشار إليها ، ص ٧ ، وما بعدها

﴿ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (المائدة : ٤٢) .. وقد اختار الإمام الطبري هذا القول بالاستثناء ، وأن الآية الكريمة محكمة [١] .

الحقوق المدنية والسياسية :

وفي ظل تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية ، فإن الحقوق المدنية ، والسياسية مكفولة لكل مواطن ، فيحق لكل فرد أن يملك ، ويرث ، ويبيع ، ويشتري ، ويرهن ، ويكفل ، ويهب ،ويوصي ، ويقف ، ويتصرف ، وفقاً لمصلحته الشخصية .

حق العمل :

ويضمن الإسلام لكل أفراد المجتمع ، العدالة في ممارسة العمل الشريف، والأجر المناسب ، لأن ذلك كله من أداء الأمانات ، والوفاء بالحقوق ، والقيام بالعدل والإحسان ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (النساء: ٥٨)، وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل : ٩٠) ، ثم إن العمل في الفقه الإسلامي، ضروري ، لسد حاجة المجتمع ، وعمران الكون .. وفي حماية الشريعة الإسلامية للعاملين ، وضمان الأجر العادل لهم ، ورد قوله : ﷺ « **أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه** » [٢] .

وتطبيقاً لذلك ، فلغير المسلمين فرصة للعمل ، وحرية التوظيف للوظائف العليا القيادية، في مناطقهم ، والوسيطة ، وغيرها ، وقد بلغ بعض المؤرخين الغربيين ، حد الإعجاب ، في بيان ما لاحظه من كثرة العمال غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، حيث يقول : (من الأمور التي نعجب لها ، كثرة العمال والمصرفين غير المسلمين ، في الدولة الإسلامية) [٣] .

---

(١) انظر جامع البيان في تأويل آي القرآن ، ج٦ ، ص ٢٤٢ .

(٢) رواه ابن ماجه في الرهون ، حديث رقم ٢٤٢٣ .

(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٤ ، سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ، ج٦ ، ص ١٠٥ .

الضمان الاجتماعي :

يقوم المجتمع الإسلامي ، على التكافل ، والتراحم ، بين الناس جميعاً ، على مستوى الأسرة ، والجيران ، والحي ، والمجتمع ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (النحل : ٩٠) .. وفي التوجيهات النبوية في التراحم بين الناس كلهم : « **الراحمون يرحمهم الرحمن، تبارك وتعالى، إرحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء** »[١] .

وفي حق الجيران، يقول ﷺ : « **ليس المؤمن ، الذي يشبع ، وجاره جائع** »[٢] .

وفي مسؤولية الجيران ، وأهل الحي ، نحو المحتاجين ، يقول : « **إيّما أهل عرصة ، بات فيهم امرؤ جائع ، فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله** »[٣] .. وقد كان بيت المال ، في عهد الخلافة الراشدة ، يفرض للمواليد القوت ، ثم توسع الأمر ، حتى شمل الكسوة (كما يذكر البلاذري)[٤] .

وتقوم الأوقاف الإسلامية ، والمبرات الخيرية ، والجمعيات الطوعية ، بدور عظيم ، يحقق التكافل ، والترابط ، والتراحم .

وأما الدولة ، فلها الصناديق القومية للضمان الاجتماعي ، والتكافل الاجتماعي لأرباب المعاشات ، إلى جانب ديوان الزكاة ، الذي يتسع بمصارفه المتعددة ، الأفراد ، والمجتمع .

---

(١) رواه الترمذي ، ج٤ ، ص ٢٣٢٤ ، حديث رقم ١٩٢٤ .
(٢) رواه الطبراني ، وأبو يعلى ، ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٦٧/٨، وكنز العمال ٥٣/٩).
(٣) رواه أحمد بن حنبل في مسنده ، ج٢ ، ص ٢٣ .
(٤) انظر فتوح البلدان ، ص ١٣٨ .

التعامل مع غير المسلمين : نماذج قرآنية

وهنا نقدم نماذج ، من آيات القرآن الكريم ، محكمة وحاكمة ، في المعاملة الحسنة ، العادلة :

١ - يقول تعالى : ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة : ٨) .

فهذه الآية ، تقرر أسس التعامل مع غير المسلمين ، أنها البر ، والقسط إليهم ، بكل ما يقتضيه معنى البر من خير ، والقسط من عدل ، وفاصلة الآية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ، تدعو كل مسلم ، أن يسارع في تنفيذ ما يحبه الله .

ولا شك في أن هذا التعامل ، يقود إلى السلام الحقيقي ، وقد أحسن صاحب الظلال ، في تعليقه على هذه الآية ، حيث يقول :

إن الإسلام دين سلام ، وعقيدة حب ، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله ، وأن يقيم فيه منهجه ، وأن يجمع الناس تحت لواء الله ، إخوة متعارفين ، متحابين ، وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا ، إلا عدوان أعدائه عليه ، وعلى أهله . فأما إذا سالموهم ، فليس الإسلام براغب في الخصومة ، ولا متطوع بها كذلك ، وحتى هو في حالة الخصومة ، يستبقي أسباب الولوج في النفوس ، بنظافة السلوك ، وعدالة المعاملة ، انتظاراً لليوم الذي يقتنع فيه خصومه ، بأن الخير أن ينضووا تحت لوائه الرفيع . ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم ، الذي تستقيم فيه النفوس ، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم .

ويمضي التعليق في الظلال ، يبين أن الأصل في العلاقات ، هو العدل ، والسلام ، فيقول :

وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين ، هي أعدل القواعد ، التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ، ووجهته ، ونظره إلى الحياة الإنسانية ، بل نظرته الكلية لهذا الوجود ، الصادر عن إله واحد ، المتجه إلى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني ، وتقديره الأزلي ، من وراء كل اختلاف ، وتنويع .. وهو أساس شريعته الدولية ، التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعاً ، هو الحالة الثابتة، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي ، وضرورة رده ، أو خون الخيانة بعد المعاهدة ، وهي تهديد بالاعتداء ، أو الوقوف بالقوة ، في وجه حرية الدعوة ، وحرية الاعتقاد ، وهو كذلك اعتداء ، وفيما عدا هذا ، فهي السلم ، والمودة ، والبر ، والعدل للناس أجمعين [1] .

٢ - يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء : ١٠٥) ، فقد جاءت هذه الآية تأكيداً عملياً لما يامر به القرآن ، من الحكم بين الناس بالعدل ، دون تفرقة بينهم ، بأي سبب من الأسباب .

وهنا تبين الآية ، أن الله تعالى قد أنزل كتابه القرآن الكريم ، بالحق ، على رسوله ﷺ ، ليحكم بين الناس ، بما هداه إليه الله تعالى .. والآية تدعوه ﷺ الا يكون محامياً ، ولامدافعاً ، عن الخائنين للأمانات ، ممن يلوون ألسنتهم بالكذب ، حتى يقضي لهم بظاهر شهاداتهم . وقد حذر النبي ﷺ من ذلك، كما في الحديث التالي :

روى الإمام أحمد في مسنده ، عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت :« جاء رجلان من الأنصار ، يختصمون إلى رسول الله ﷺ في موارث بينهما، قد درست ، ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ :« **إنكم تختصمون إليّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، يأتي بها انتظاماً في عنقه يوم**

---

(١) انظر كتاب: في ظلال القرآن ، للشهيد سيد قطب ، ط دار الشروق ، ج٦ ، ص ٣٥٤٤ - ٣٥٤٥ .

القيامة » .. فبكى الرجلان ، وقال كل منهما : حقي لأخي، فقال رسول الله ﷺ : « **أما إذا قلتما، فاذهبا، فاقتسما ، ثم توخيا الحق بينكما ، ثم استهما ، ثم ليحلل كل منكما صاحبه** » [1] .

وفي أسباب النزول ، إشارة إلى أن بعض الأنصار ، رمى أحد اليهود بغير حق ، بتهمة ظالمة ، فجاءت هذه الآية وما بعدها ، في براءته .. آيات تتلى أبد الدهر ، تؤصل للعدالة ، وتؤكدها بين الناس كلهم ، دون تفرقة ، بسبب اختلاف الدين ، أو العنصر ، أو القبائل ، أو الشعوب. يقول تعالى: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ (المائدة : ٥) .

يقول صاحب الظلال ، في بيان معاني هذه الآية [2] : (وهنا نطلع على صفحات السماحة الإسلامية ، في التعامل مع غير المسلمين ، ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي (في دار الإسلام) ، وتربطهم به روابط الذمة ، والعهد ، من أهل الكتاب ، أن الإسلام لا يكتفي بان يترك لهم حريتهم الدينية ، ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع مجفوين ، معزولين ، أو منبوذين ، إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية ، والمودة ، والمجاملة ، والخلطة ، فيجعل طعامهم حلاً للمسلمين ، وطعام المسلمين حلاً لهم كذلك ، ليتم التزاور ، والتضايف، والمؤاكلة ، وليظل المجتمع كله في ظل المودة ، والسماحة .. وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم – وهنا المحصنات بمعنى العفيفات الحرائر – طيبات للمسلمين. .و يقرن ذكرهن ، بذكر الحرائر العفيفات ، من المسلمات ، وهي سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام ، من بين سائر أتباع الديانات والنحل) .

وواضح أن الإسلام ، لم يبح زواج المسلمات بغير المسلمين ، والسبب الظاهر في ذلك،

---

(١) رواه البخاري في الشهادات ، ج٥ ، ص ٢٨٨ ، برقم ٢٦٨ .. وأحمد في مسنده ، ج٦ ، ص٣٢٠ .
(٢) انظر في ظلال القرآن ، ط دارالشروق ، ج٢ ، ص ٨٤٨ .

هو أن القوامة في الزواج للرجال ، والمسلم مؤتمن على رعاية حقوق زوجته الكتابية ، لا يكرهها في الدين ، ولا يمنعها من الكنيسة ، بل يوصلها ، ولا يمنعها ما هو مباح لها في دينها .

وفوق كل هذا ، فهو مؤمن بأنبياء الله جميعاً ، لا يفرق بين أحد من رسله ، بينما غير المسلم ، يكفر بالرسالة الخاتمة ، ويخشى من فتنة المسلمة عن دينها .

وهذه المعاملة الحسنة ، وخلق البر ، والقسط ، أصل ثابت مستقر ، في توجيهات القرآن ، والسنة ، والتطبيق العملي في العهد النبوي ، والخلافة الراشدة ،وما اتصل بها من معاملات في العصور الإسلامية ، وليست سياسة عارضة ، أو مؤقتة .

ومثالاً على هذه المعاملة الحسنة ،وخلق البر والقسط ، مع غير المسلمين، وجدنا رسول الله ﷺ يعود غلاماً يهودياً مريضاً ، حتى إن والده لم يملك تقديراً لهذا الجميل ، والصنيع الحسن، من الزيارة النبوية، إلا أن يشجع ولده على قبول الدعوة النبوية، واعتناق الإسلام(١) .

وقد انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ودرعه مرهونة عند يهودي ، وفي ذلك أعظم الدلالة على حسن التعامل .. وفعل ذلك مع وجود مسلمين أثرياء ، في صحابته ، الذين يفدونه بأرواحهم ، وأموالهم (٢) .

وقد كان ﷺ يستقبل الوفود من القبائل ، والأمصار ، ويحسن وفادتهم ، وهكذا صنع حين زاره وفد نصارى نجران ، وكان بمسجده في المدينة المنورة ، مما هو معروف خبره في السيرة النبوية ، وتاريخ الدعوة الإسلامية (٣) ، وسيظل هذا الهدي النبوي العظيم ، هو نبراسنا في معاملاتنا المعاصرة ، بإذن الله .

---

(١) صحيح البخاري ، فتح الباري ، ٢١٩/٣ ، ح ١٣٥٦ .

(٢) صحيح البخاري ، فتح الباري ، ٩٩/٦ ، ح ٢٩١٦ .

(٣) الروض الأنف ٣ /٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ٥/ ٦ ، ط٢ ، ١٩٧٧ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، وانظر الندو ، السيرة النبوية ، ٣٢٦ .

خاتمة

الحمد لله الذي أكمل الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥).. ثم أما بعد:

فهذا غيض من فيض، وقطر من غيث، ينهمر من بشائر المستقبل للإسلام، بظهوره وانتشاره، وسيادة حضارته في العالمين، فكل أخبار القرآن صدق، وأحكامه عدل: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام: ١١٥).. وفي تعاليم الإسلام والسنة، وفقه الشريعة الإسلامية، دلائل لا تستقصى، تبشر كلها بالمستقبل للإسلام: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ (ص: ٨٨).. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٢١).

ولا يزال في موضوع المستقبل للإسلام، كثير مما يحفز الدعاة إلى الله، للعمل على بصيرة، وفقنا الله ومن والانا، لتصويب النظر على قضايا المستقبل للإسلام، نجدد بحسن تقديمها أمر ديننا، ثم إننا نجدد دعوتنا إلى أمتنا، ونخص جيلنا المعاصر، وشبابنا، عدة المستقبل، أن يسارعوا إلى الاستجابة لداعي الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٤).. وأن يكونوا عند أمل أمتهم بهم، فيلتزموا ذكر الله، وساحات الجهاد، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويعتصموا بحبل الله المتين، ويلجأوا إليه، قانتين، في النوازل وغيرها، ليكونوا حملة لواء الشريعة، والدعوة إلى تطبيقها، وإحياء الشعائر، وإقامة الدين كله، مراعين واقع مجتمعاتهم، وأدب التدرج، والانتقال في المراحل، حاملين رسالة الرحمة والرأفة، مقتدين بإمامهم ونبيهم، عليه الصلاة والسلام، في رأفته ورحمته بالمسلمين، ومن يعيش في كنفهم، ليعيشوا السعادة الحقيقية مع المسلمين، في ظل التزامهم شريعة الإسلام، وإقامتها في شؤون حياتهم كلها. سائلين الله أن يهدي شباب الإسلام، صنّاع المستقبل، وقادة المسلمين، وأن يعزهم بالإسلام، ويعز الإسلام بهم، ليصنعوا مستقبل الإسلام المشرق. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهـــــرس

وكـــــلاء التـــوزيـــع

البلد	إسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	دار الثقافة دار الثقافة وقسم توزيع الكتاب،	٤١٤١٨٢ ٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ - الدوحة فاكس: ٤٣٦٨٠٠ - بجوار سوق الجبر
الإمارات	المكتبة الحديثة	٦٥٥٦٢٢	ص.ب: ١٥٥٤٠ - العين فاكس: ٦٦٩٥٤٠
البحرين	مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ - البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
السعودية	شركة تهامة للتوزيع	٦٦٩٥٠٠٠	ص.ب: ٩٤٠٩ جدة ٢١٠٢١٤١٣ شارع الملك فهد - خلف أسواق النويصر فاكس: ٦٦٠٧٦٠٠
عُمان	مكتبة الثقافة الإسلامية	٢٩٢٩٣٤ ٢٩٤٩٨٦	ص.ب: ١٨٦٨٢ - ظفار - صلالة فاكس: ٢٩٢٨٧٩
الكويت	مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ - حولي - شارع المثنى - رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
الأردن	مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	٦٠١٥٠١ - ٦٠١٥١١ ٦٠١٩١١	ص.ب: ٩٦٠٦٥٤ - عمّان فاكس: ٦٠١٩٩١
اليمن	مكتبة الجيل الجديد	٧٨٠٤٠ - ٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ - ٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤ - صنعاء
السودان	دار التوزيع	٧٧٩٤٦٠ - ٧٧٥٥٨٥	ص.ب: ٣٥٨ - الخرطوم
مصر	مؤسسة توزيع الأخبار	٧٤٨٨٤٤ ٧٤٨٨٨٨ - ٧٥٨٨٨٨	ص.ب: ٧ - القاهرة فاكس: ٥٧٤٨٧٠١
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع «سبريس»	٢٤٩٢٠٠	ص.ب: 13008 - 70 زنقة سجلماسة الدار البيضاء 5 - فاكس: ٢٤٩٢١٤
إنكلترا	دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263 - 3071	**Muslim Welfare House,** 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax : (071) 281 2687 Registered Charity No: 271680

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	٤٠ ديناراً
عُمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	٢ جنيه
المغرب	١٠ دراهم
اليمن	٤٠ ريالاً

○ الأمريكتان واوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعدله .



مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برقياً : الأمة - الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

٣٥٨ لسنة ١٩٩٥م

الترقيم الدولي : ٢-٢٢-٢٣-٩٩٩٢١



ص . ب . ١١٠ الدوحة - قطر